بيير ليفي

مكتبة ٣١٤

عالَمنا الافتراضيّ

ما هو؟ وما علاقته بالواقع؟

ترجمة

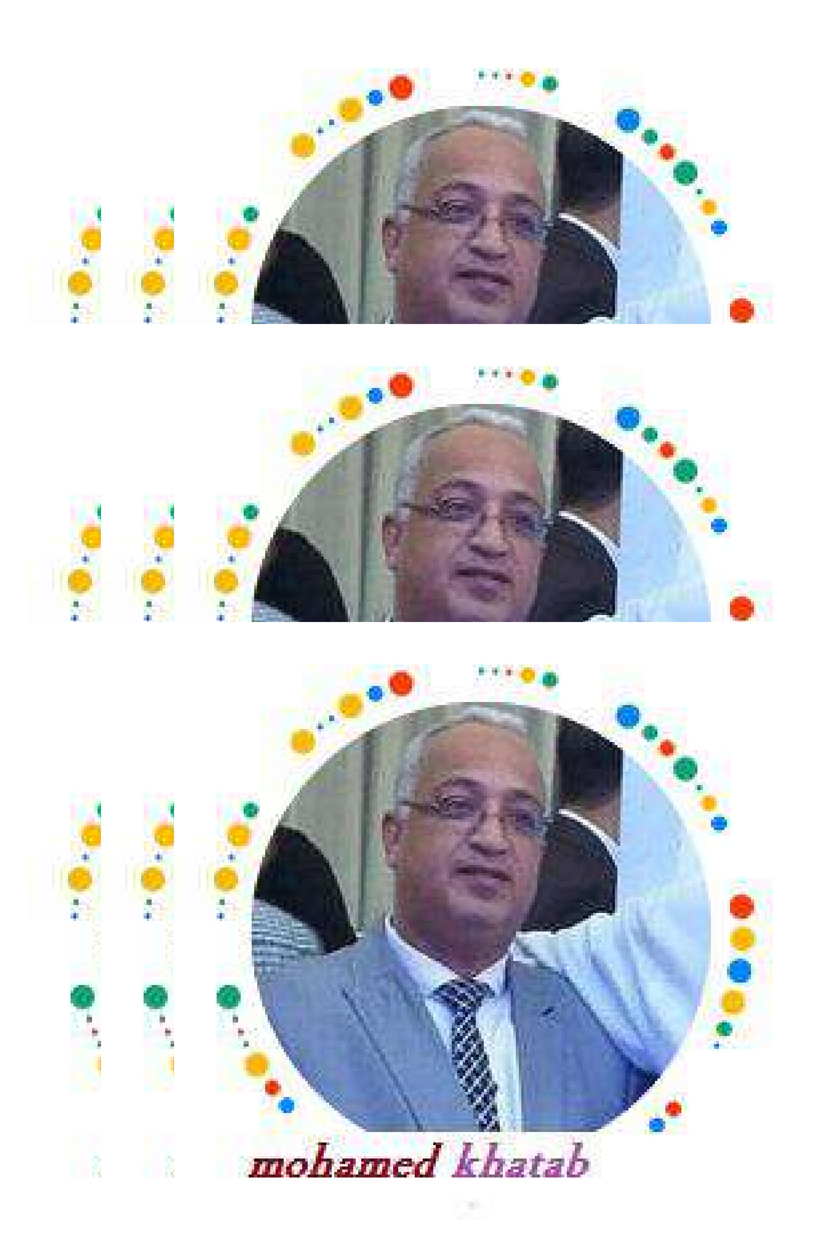
د. رياض الكحال

مراجعة

د. منصور فرح ومحمد المومني

مكتبة | 314

هيئة البحرين
للثقافة والآثار


mohamed khatab

عالَمنا الافتراضيّ

ما هو؟ وما علاقته بالواقع؟

أهدي هذا الكتاب إلى إيدِن ولُو-نُويه،

اللذين يمثلان البهجة والبراءة



المحتويات

مقدمة

«يملك الافتراضي واقعًا كاملًا، بصفته افتراضيًا.»

Gilles Deleuze, *Différence et Répétition*

«الواقع الافتراضي مَفسدةٌ، والواقع المطلق مَفسدةٌ قطْعًا.»

Roy Ascott, *Prix Ars electronica 1995*

ثمّة اليوم حركة افْتِرْضان (virtualization)(*) عامة لا تصيب المعلومة والاتصال فحسب، بل تصيب أيضًا الأجساد وسَيْر الاقتصاد والأطر الجماعية للحساسية أو ممارسة الذكاء. يصيب الافترضان حتى طرق العيش المشترك وتركيبة الـ«نحن»: مجتمعات افتراضية، شركات افتراضية، ديمقراطية افتراضية... وبالرغم من أن رَقْمَنة الرسائل وتمدّد الفضاء السيبراني يؤدّيان دورًا رئيسيًّا في الطفرة الحاصلة، فإن الأمر يتصل بموجة عارمة تتجاوز إلى حد بعيد الحوسبة المعلوماتية.

(*) ارتأينا استخدام مصطلح «الافْتِرْضان»، وهو مصدر الفعل «افْتَرْضَنَ» الملحق بافعَنْلَلَ أي الملحق بالرباعي المزيد فيه حرفان. والافترضان سيرورة وانتقال من حال إلى حال، وهو ما تفيده في اللغة الفرنسيّة اللاحقةُ الماثلة في آخر الاسم (virtualisation). [الهوامش المشار إليها بنجمة (*) هي من وضع المراجع (محمد المومني)].



هل علينا أن نخشى الانفصال العام عن الواقع؟ أم نخشى نوعًا من الاختفاء الشامل كما اقترح جان بودريار (Jean Baudrillard)؟ هل نحن معرضون لخطر قيامةٍ ثقافية؟ أم لانهيار داخلي مخيف للزمكان كما تنبأ بول فيريليو (Paul Virilio) منذ عدة سنوات؟ يدافع هذا الكتاب عن فرضية مختلفة غير كوارثية: من خلال التطورات الثقافية الجارية في منعطف الألفية الثالثة ـ بالرغم من مظاهرها القاتمة أو المخيفة التي لا يمكن إنكارها ـ، يجري التعبير عن تتبّع البَشْرَنة (l'homonization).

ما من شكّ في أنّه لم يسبق أبدًا أن كانت تغيّرات التقنية والاقتصاد والسجايا سريعة ومقوِّضة للاستقرار على هذا النحو. بيد أنّ الافتراضان يشكّل بحقّ جوهر الطفرة الجارية أو طليعتها. وبالتالي، فإنّ الافتراضان في حد ذاته ليس حسنًا ولا سيئًا ولا حياديًّا. ويبدو كأنه حركة «الاستحالة شيئًا آخر» عينها أو التكوين المتغاير ـ عند الإنسان. وأطلب قبل أن نخشى الافتراضان وندينه أو نرتمي في أحضانه، أن نبذل وسعنا في الإلمام به في رحابته والتفكير فيه وفهمه.

إن الافتراضيّ المعرّفَ تعريفًا دقيقًا ـ كما سنرى في طيّ الكتاب ـ لا يمت إلّا بصلة ضعيفة إلى الزائف أو الوهمي أو الخيالي. ليس الافتراضي ضدّ الواقعيّ أبدًا. إنه على النقيض من ذلك نمط وجود خصب وقويّ يغني عمليات الإبداع ويفتح آفاق المستقبل ويحتفر آبارًا من المعاني تحت سطحيّة الوجود الفيزيائي الآني.

عمل عدد من أعظم الفلاسفة، لا من أدناهم، على مفهوم الافتراضي، ومن ضمنهم بعض المفكرين الفرنسيين المعاصرين

مثل جيل دولـوز أو ميشيل سير (Michel Serres). إلامَ يطمح هذا الكتاب؟ إنه يطمح بكل بساطة إلى الآتي: لم أكتفِ بتعريف الافتراضي بأنه نمط وجـود خاص بل أردت أيضًا تحليل عملية التحول من نمط وجود إلى نمط وجود آخر وإيضاحها. وفي حقيقة الأمر يدرس هذا الكتاب الافتراضانَ الذي يرتقي من الواقعيّ أو من الفعليّ إلى الافتراضي. ويحلل التقليدُ الفلسفي، وحتّى البحوثُ الحديثة الانتقالَ من الممكن إلى الواقعيّ أو من الافتراضي إلى الفعلي. ولم تحلل أيّ دراسة، على حد علمي، التحول المعاكس باتجاه الافتراضي. إن هذه العودة إلى البدايات تحديدًا هي التي تبدو لي علامة مميزة لحركة التخلّق الذاتي التي انبثق منها الجنس البشري، وللتحول الثقافي المتسارع الذي نعيشه اليوم في آن واحد. وعلى ذلك، فإنّ لهذا الكتاب ثلاثة رهانات: رهان فلسفي (مفهوم الافتـرضـان) ورهـان أنتروبولوجي (العلاقة بين مسار البشرنة والافتراضان)، ورهـان اجتماعي سياسي (فهم الطفرة المعاصرة حتّى نقتدر على أن نكون من فواعلها).. أمّا في ما يخص هذه النقطة الأخيرة، فإن البديل الرئيسي لا يكون بالتردد الجليّ بين الواقعيّ والافتراضي، ولكن بالأحرى بين أنماط متعددة من الافتراضان. بل يجب أيضًا أن نميِّز بين افتراضان في طور الابتكار من جهة، وصوره الكاريكاتورية الاستلابيّة والمادية وغير المؤهلة من جهة أخرى. وهاهنا تظهر الضرورة الملحّة ـ بحسب اعتقادي ـ لوضع خرائطية للافتراضي، وقـد جـاء هـذا «الوجيز فـي الافتـرضان» استجابةً لذلك.

في الفصل الأول المعنون «ما الافترْضانُ؟»، أعرّف المفاهيم الرئيسة، مثل: الواقع، والإمكان، والفعلية والافتراضية التي ستستخدم في ما بعد بالإضافة إلى مختلف التحولات من نمط وجود إلى آخر. سيكون هذا الفصل أيضًا مناسبة لإجراء بداية لتحليل الافترضان في معناه الأصليّ، وبخاصة ظاهرة «اللاموضعيّة» وظواهر أخرى زمكانية غريبة مرافقة له بشكل عامّ.

تتعلق الفصول الثلاثة التالية بافترضان الجسد والنص والاقتصاد. وستستخدم هنا المفاهيم المستخلصة أعلاه في ظواهر معاصرة، وتتيح التحليل بطريقة متناسقة لدينامية الطفرة الاقتصادية والثقافية الجارية.

يحلل الفصل الخامس البشرنة في ضوء نظرية الافترضان: افترضان الحاضر الفوري عن طريق اللغة وافترضان الأنشطة الفيزيائية عن طريق التقنية وافترضان العنف عن طريق العقد. على هذا النحو، وبالرغم من وحشية أزمة الحضارة وغرابتها التي نعيشها، فإنّه من الممكن أن نعيد الإمساك بزمامها من خلال استمرارية المغامرة الإنسانية.

يستخدم الفصل السادس، بعنوان «عمليات الافترضان»، المواد التجريبية المتراكمة في الفصول السابقة ليسلّط الضوء على النواة الثابتة للعمليات الأولية المنشئة لكلّ سيرورات الافترضان: أي السيرورات النحويّة والجدليّة والبلاغيّة التي تشمل الظواهر التقنية والاجتماعية.

يدرس الفصلان السابع والثامن «افتراضان الذكاء» ويعرضان سير العمل التقني الاجتماعي للإدراك، باتباع جدلية **تجسيد الباطنية** وشخصنة **الظاهرية** التي سنرى أنها من خواصّ الافتراضان. ويخلص هذان الفعلان إلى نتيجتين رئيستين. الأولى: بزوغ رؤية متجددة **للذكاء الجماعيّ** الذي ما زال يظهر في شبكات الاتصال الرقمية، ثم بناء مفهوم **الغرض** (وسيط اجتماعي، ودعم تقني وعقدة العمليات الذهنية) الذي يُتِمّ نظرية الافتراضان.

يلخّص الفصل التاسع مكتسبات هذا الكتاب وينظمها وينسّبُها، ثم يرسم الخطوط العريضة لمشروع فلسفة قادرة على استيعاب **ثنائية الحدث والمادة**، التي هي محطّ النظر المسلّط طوال هذا العمل.

وأخيرًا، تحتكم الخاتمة إلى فن للافتراضان وإلى حساسية جمالية جديدة تجعل من حسن الضيافة الموسعة فضيلتها الرئيسة في هذا العصر الموسوم باللّاموضعيّة على نطاق واسع.

1

ما الافتـرضـان؟

الفعلي والافتراضي

سندرس في البداية التعارض السهل والخادع بين الفعلي والافتراضي. وغالبًا ما ترِد كلمة «افتراضي» في الاستخدامات العاديّة للإشارة إلى انعدام الوجود التام، بينما تفترض كلمة «الواقع» إنجازًا ماديًّا ووجودًا ملموسًا. ينضوي الواقعيّ تحت معنى «أنا أمسك به» بينما ينضوي الافتراضي تحت معنى «ستحصل عليه» أو الوهم، وهذا ما يتيح عادةً التهكم السهل حين تُذكر مختلف أشكال الافترضان. وتتضمن هذه المقاربة جزءًا من حقيقة جديرة بالاهتمام، لكنها لا تصلح أبدًا لتأسيس نظرية عامة كما سنرى لاحقًا.

كلمة افتراضيّ (virtuel) بالفرنسية مشتقّة من كلمة (*virtualis*) في اللغة اللاتينية للعصور الوسطى، وهي بدورها مشتقة من (*virtus*) أي القوة والقدرة. ويطلق تعبير الافتراضي في الفلسفة المدرسية، على الشيء الموجود بشكل كامن، لا على الشيء الموجود بالفعل. ويميل الافتراضي إلى أن يصبح فعليًّا من دون المرور، مع ذلك، بالتجسيد الفعلي أو الشكليّ. فالشجرة موجودة افتراضيًّا في البذرة. ولا يتعارض الافتراضي من الناحية الفلسفية الدقيقة مع الحقيقي، لكنه يتعارض مع الفعلي: ما الافتراضية والفعلية إلّا مجرد طريقتيْ وجود مختلفتين.

يجبُ في هذا الموضع أن نجري تميزًا رئيسًا بين الممكن والافتراضي، الذي سلط جيل دولوز الضوء عليه في كتابه **الاختلاف والتكرار** (*Différence et Répétition*)[1]. فالممكن متشكل تمامًا لكنه يقف معلّقًا. والممكن سيتحقق بدون أن يؤثر أي شيء في تكوينه أو طبيعته. إنه حقيقة شبحية وكامنة. ويشبه الممكن الحقيقيَّ تمامًا، إذ لا ينقصه إلّا الوجود. ولا يعتبر تحقيق الممكن إبداعًا بالمعنى الكامل، لأن الإبداع يقتضي أيضًا الإنتاج المبتكر لفكرة أو لشكل. فالفرق إذًا بين الممكن والحقيقيّ هو مجرد فرق منطقي.

ولا يتعارض الافتراضي مع الحقيقي ولكن مع الفعلي. وعلى النقيض من الممكن الساكن الذي سبق أن تشكّل، فإن الافتراضي هو بمثابة مجمّع إشكالي، أي عقدة تيارات أو قوى مرافقة لحالة أو لحدث أو لغرض أو لأيّ كيان، وهو الذي يحتاج إلى عملية حَلّ هي: التفعيل (بمعنى جعله فعليًا). وينتمي هذا المجمع الإشكالي إلى الكيان المعني، بل يشكل أحد أبعاده الرئيسية. فمشكلة البذرة تتمثل في دفع الشجرة إلى النمو. والبذرة «هي» تلك المشكلة ولو لم تكن كذلك حصرًا. ولا يعني ذلك أن البذرة تعرف شكل الشجرة تمامًا، فتلك الشجرة هي التي ستتفتح أوراقها فوقها في النهاية. على البذرة اعتبارًا من القيود المفروضة عليها أن تختلق الشجرة وأن تشارك في إنتاجها ضمن الظروف التي تواجهها.

في جانب ما، نرى أن الكيان يحمل افتراضياته وينتجها: على سبيل المثال يعيد الحدث تنظيم إشكالية سابقة وهو عرضة للحصول على

---

(1) المراجع الكاملة للكتب المذكورة موجودة في المسرد المعنون «مراجع مختارة مع تعليقات» في آخر الكتاب.

تفسيرات متنوعة. ومن جانب آخر، يشكل الافتراضي الكيان: الافتراضيات السّنخيّة في كائن ما وإشكاليته وعقدة التوترات والقيود والمشاريع التي تثيره والأسئلة التي تحركه، كلها تشكل جزءًا أساسيًّا من تكوينه.

التفعيل

يبدو التفعيل حلًّا لمسألة وهو حَلّ لم يكن موجودًا مسبقًا في الطرح. فالتفعيل عمل إبداعي، إنه عملية خلق وابتكار لشكل استنادًا إلى تشكيلة دينامية لقوى وغايات. ويحدث في التفعيل شيء آخر مختلف عن منح واقع لشيء ممكن، كما أنه ليس خيارًا ضمن مجموعة محدّدة مسبقًا. إنّ التفعيل هو إنتاج صفاتٍ جديدة، وتحويلٌ للأفكار، ومآل حقيقي يغذّي الافتراضي رجعيًّا.

على سبيل المثال، إذا كان سير برنامج معلوماتي، منطقي صرف، يتعلق بالثنائي «ممكن / واقعيّ»، فإن التفاعل بين البشر والأنظمة المعلوماتية يتعلق بالجدلية بين الافتراضي والفعلي. في البدء، تساعد كتابة برنامج معلوماتي مثلًا في معالجة مسألة ما بطريقة مبتكرة. حيث يقوم كل فريق من المبرمجين بإعادة تعريف المسألة المطروحة عليه وحلها بشكل مختلف. وفي المنتهى، يُجري تفعيلًا لبرنامج في وضعية الاستخدام، ضمن فريق عمل مثلًا، فيلغي بعض الكفاءات، ويظهر آليات أخرى، ويحدث منازعات، ويحل الأزمات، ويرسي دينامية جديدة للتعاون... يجلب البرنامج افتراضية تغيير تدعو المجموعة التي تفعّلت بدورها بتشكيلة ديناميّة مأتاها الانتحاءات والإكراهات، إلى تفعيل هذه الافتراضيّة على نحو مبتكر.

إنّ الواقعيّ يشبه الممكن، ولكن الفعلي بالمقابل لا يشبه الافتراضي في شيء: إنه يجيبه.

الافتراضان

لقد فهمنا الآن الفرق بين الوقوعيّة (حدوث شيء ممكن محدد مسبقًا) والتفعيل (ابتكار حَلّ يتطلّبه مركّب إشكاليّ). ولكن ما هو الافتراضان؟ لا نقصد بسؤالنا الافتراضيَّ من حيث هو نمط وجود وإنّما الافتراضان من حيث كونه دينامية. يمكن تعريف الافتراضان بأنه حركة معاكسة للتفعيل. إنه انتقال من الفعلي إلى الافتراضي بنوع من «الترقية إلى أقصى القوّة» للكيان المعنيّ.

ولا يعتبر التحول الافتراضي حالة انفصال عن الواقع (تحويل واقع إلى مجموعة ممكنات) وإنّما هو طفرة هوية وانتقال الغرض ذي الصلة من مركز الثقل الأنطولوجي: عوضًا عن أن يعرّف الشيء بفعليته (كـ«حل»)، فإنه يجد قوامه الأساسي ضمن مجال إشكالي. وتتمثل محاكاة كيان ما افتراضيًّا باكتشاف سؤال عامّ متعلق به وإحداث طفرة فيه باتجاه هذا التساؤل وإعادة تعريف فعلية البداية كجواب عن سؤال خاص.

فلننظر في الحالة المعاصرة حقّ المعاصرة «للافتراضان» بالنسبة إلى شركة ما. يقوم التنظيم التقليدي بجمع مستخدمي الشركة في البناء نفسه أو في مجموعة أبنية. ويحتل كل مستخدم منصب عمل يحدد مكانه بدقة ويسمح برنامج دوامه بضبط ساعات العمل. وفي مقابل ذلك، تستخدم الشركة الافتراضية العمل عن بعد بكثرة، وتميل

إلى استبدال الحضور الجسدي لمستخدميها في الأمكنة نفسها بالمشاركة في شبكة اتصالات إلكترونية واستخدام الموارد البرمجية التي تشجع على التعاون. يقوم إذًا افتراضان الشركة بشكل خاص على جعل إحداثيات العمل الزمكانية مسألة تُطرح دومًا، أكثر من كونها حلًّا ثابتًا. ولا يكون مركز ثقل التنظيم في هذه الحالة مجموعة أبنية ومناصب عمل وجداول دوام وإنّما عملية تنسيق تعيد التوزيع بشكل مختلف دومًا للإحداثيّات الزمكانية للعمل الجماعي ولكل فرد من أفراده بحسب القيود المختلفة.

كان التفعيل ينطلق من المسألة إلى الحل، بينما يمضي الافتراضان من حل معطى إلى مسألة (أخرى). إنه يحول الفعلية الأساسيّة إلى حالة خاصة لإشكالية أكثر شمولًا، ويتم وضع الثقل الأنطولوجي عليها من الآن فصاعدًا. وبهذا الشكل، يذيب الافتراضان الفروق الموضوعة ويزيد درجات الحرية ويحفر فراغًا محركًا. ولو لم يكن الافتراضان سوى انتقال من واقع إلى مجموعة من الممكنات لكان فاصلة للواقع غير أنّه ينطوي، مثل التفعيل، على درجة انعدام اللاانعكاسيّة نفسها في نتائجها وعدم ثبات آلية سيرها والابتكار في جهدها. إنّ الافتراضان هو أحد المتّجهات الرئيسية لاستحداث الواقع.

الخروج من هنا: الافتراضان من حيث هو خروج

بعد أن عرّفنا الافتراضان في خطوطه العريضة، سنتطرق الآن إلى إحدى طرائقه الرئيسية: الانفكاك من المكان الراهن واللحظة الراهنة. يقوم المنطق العامّ ـ كما ذكرنا في البداية ـ بتحويل

الافتراضي الذي لا يمكن إدراكه إلى شيء مُتِمٍّ للواقعيّ وملموس. وتتضمن هذه المقاربة إشارة لا ينبغي إهمالها، وهي: الافتراضي غالبًا «غير موجود هنا».

ولم يعد بالإمكان تحديد مكان المؤسسة الافتراضية بشكل دقيق. عناصرها كالبدو الرحل مبعثرون ووثاقة صلتهم بموقعهم الجغرافي قد تراجعت إلى حد كبير.

هل يوجد النص هنا على الورق مُحتلًا قسمًا معيّنًا من الحيز الفيزيائي أم أنه موجود في منظومة مجردة ويتم تفعيله في مجموعة لغات وترجمات وإصدارات وطباعات؟ حاليًّا يبدو النص الخاص نفسه تفعيلًا لنص تشعبي ذي محامل معلوماتية. هل يحتل هذا النصّ «افتراضيًّا» كل نقطة من الشبكة التي ترتبط بها الذاكرة الرقمية حيث يسجل رمزه؟ هل يمتد إلى كل منظومة حيث نستطيع نسخه خلال ثوانٍ معدودات؟ باستطاعتنا طبعًا أن نخصص عنوانًا للملف المعلوماتي. لكن في عصر تناقل المعلومات على الإنترنت، سيكون هذا العنوان مؤقتًا في كل الأحوال وذا أهمية ضئيلة. لأن النص التشعّبيّ مُجَّرَ، ولكونه موجودًا كاملًا بكل ترجماته ونسخه وعروضه، وخاليًا من العطالة، ولكونه متواجدًا في كل مكان وزمان في الفضاء السيبراني، فإنه يساهم هنا وهناك في إنتاج أحداث تفعيلٍ نصية وتصفحٍ وقراءةٍ. هذه الأحداث فحسب تكون محددة المواقع. وعلى الرغم من حاجة النصّ التشعبيّ العديم الوزن إلى ركائز متينة ليدوم ويتفعل، فإنه ليس له مكان محدد.

يورد كتاب ميشيل سير، **أطلس** (*Atlas*)(*)، موضوع الافتراضي على أنه «خارج هذا المكان». فالخيال والذاكرة والمعرفة والدين إنْ هي إلّا نواقل افتراضان دفعتنا لترك «هذا المكان» قبل المعلوماتيّة والشبكات الرقمية بكثير. إن مؤلف كتاب **أطلس**، وهو يدرس هذا الموضوع، يستأنف بشكل غير مباشر جدلًا ضد فلسفة هيدغر المتعلقة بـ«الوجود هنا» (l'être-là). إن عبارة «الوجود هنا» هي الترجمة الحرفية للعبارة الألمانية (dasein) التي تعني وجودًا في اللغة الألمانية الفلسفية الكلاسيكية ووجودًا إنسانيًّا محضًا ـ أن تكون كائنًا إنسانيًّا ـ عند هيدغر. لكن أن لا نكون جزءًا من أي «هنا»، فنطارد حيِّزًا لا صفة له (أين توجد المكالمة الهاتفية؟)، وأن لا يحدث [كائنٌ] إلّا بين أشياء واضحة المواضع، أو أن لا نكون «هنا» فحسب (ككلّ إنسان مفكر)، فذلك غير مانع من الوجود. وعلى الرغم من أن الاشتقاق لا يثبت شيئًا، فإنّنا نشير إلى أن فعل كان(**) (بالفرنسية exister) يأتي تحديدًا من اللغة اللاتينية (*sistere*) التي تعني أن يكون موضوعًا، والسابقة (*ex*) التي تتصدّره تعني خارج. هل يعني «كان» التواجد هنا أو الخروج من هنا؟ وجودًا (existence) أو كينونة

(*) يشير بيير ليفي إلى مصنّف ميشيل سير، وهو ضرب من الكتابة التي تجمع بين الإبداع من ناحية والعمق الفلسفي بمناقشة قضايا العصر الإنسانيّة والفكرية من ناحية أخرى. والكتاب بمثابة مفكّرة ضبط فيها صاحبها جملة العوالم الجديدة التي يصنعها تيهنا في الألفيّة الثالثة. وعلى هذا النحو يطرح ميشيل سير بقوّة نظريّة سطوة ثلاثيّ الزمن والمعرفة والكينونة على إنسان العصر الحديث. وقد صدر الكتاب أوّل مرّة عن منشورات فلاماريون سنة 1997 بفرنسا.

(**) استعملنا فعل «كان» مقابلًا للفظ الفرنسي (exister). ونحن نجريه في هذا الموضع على أنّه فعل تامّ، كقولنا: «وكانت الحياة»، أي وُجدت.

(Dasein)؟ تبدو الأمور وكأن اللغة الألمانية تشير إلى التفعيل واللاتينية إلى الافتراضان.

تستطيع مجموعة افتراضية مثلًا أن تنظم نفسها طبق قاعدة التجاذب بواسطة أنظمة الاتصالات المعلوماتية. فيتجمع أفرادها بحسب الاهتمامات نفسها والمسائل ذاتها: الجغرافيا المحتملة لا تشكل نقطة البداية كما لا تشكل قيدًا. وعلى الرغم من وجودها «خارج الهُنا»، فإن هذه المجموعة تتملكها الأهواء والمشاريع والنزاعات والصداقات. إنها تعيش بدون مكان مرجعي ثابت: في كل مكان حيث يكون أفرادها المتحركون أو في اللامكان. يعيد الافتراضان خلق ثقافة مترحّلة، لا بالعودة إلى العصر الحجري القديم أو حضارات الرعاة القديمة، إنّما بإنشاء وسط للتفاعلات الاجتماعية حيث تتشكل العلاقات من جديد مع الحد الأدنى من العطالة.

حينما يتحول إنسان أو مجتمع أو عمل ما أو معلومة إلى كيان افتراضي فإنهم يتموضعون «خارج الهُنا» ويصبحون بلا مكان محدد، ويصيبهم نوع من الانفصال عن الحيّز الفيزيائي أو الجغرافي العادي ومن زمانية الساعة والتقويم. هم ليسوا مستقلين تمامًا عن الزمكان المرجعي هنا أيضًا، ذلك أنّ عليهم أن يرتبطوا دومًا بركائز فيزيائية ويتفعّلوا هنا أو هناك، الآن أو لاحقًا. ومع ذلك، فإنّ الافتراضان قد دفعهم لاتخاذ نقطة تماسّ. إنهم لا يتقاطعون مع الزمكان التقليدي إلّا نادرًا، متجنبين النمطيات «الواقعية»: التواجد في كل مكان، التزامن، الانتشار المتشظّي أو المتوازي بشكل كبير. ويُخْضِعُ الافتراضان الرواية التقليدية لمحكّ صعب: وحدة الزمن من دون وحدة المكان (بفضل التفاعلات ضمن

الزمن الحقيقي من خلال الشبكات الإلكترونية والبث المباشر وأنظمة التواجد عن بعد)، واستمرار الفعل على رغم الفترة المتقطعة (كما هي الحال في الاتصال عبر المجيب الآلي أو عبر البريد الإلكتروني). ويحل التزامن محل وحدة المكان كما يحل الترابط الكهربائي محل وحدة الوقت. ولكن الافتراضي مع ذلك ليس خياليًا. إنه يحدث آثارًا. فالمكالمة الهاتفية «تحدث» من دون أن نعرف أين، وسنرى كيفية ذلك في الفصل التالي. إننا نتواصل فعليًا عبر المجيبات الآلية على الرغم من عدم معرفتنا متى حصل ذلك. إن المشغّلات الأكثر تجردًا من المكان والأكثر انفكاكًا من الترسخ الزمكاني الدقيق، والمجموعات الأكثر افتراضية والتي تحاكي افتراضيًا العالم المعاصر، هي تلك التي تنتمي إلى المجمعات التقانية العلمية والمال ووسائل الإعلام. وتشمل أيضًا تلك التي تهيكل الواقع الاجتماعي بأكبر قدر من القوة، لا بل بأكبر قدر من العنف.

إن تحويل قيد شديد الفعلية (كقيد الوقت والجغرافيا) إلى متحول محتمل هو بمثابة ارتقاء إبداعي لـ«حل» فعلي نحو إشكالية، وبالتالي نحو الافتراضان بالمعنى الذي حددناه بدقة في ما سلف. لقد كان متوقعًا إذًا حصول التهجير أي الخروج من الـ«هُنا» ومن الـ«آن» ومن الـ«هذا» كإحدى الطرق الرئيسية للافتراضان.

فضاءات جديدة، وسرعات جديدة

لكن الحركة نفسها التي تجعل الزمكان العادي محتملًا، تفتح أوساطًا جديدة للتفاعل وتهَبُ إيقاعًا لتسلسلات زمنية لم يسبق لها مثيل. وقبل أن نحلل هذه الخاصية الرئيسية للافتراضان، يجب في

البداية أن نوضح تعدد الأزمنة والأمكنة. ما إن تتدخل الذاتيّة والمعنى والمناسبة حتّى يمتنع الاعتداد بمساحة واحدة أو بتسلسل زمانيّ منتظم، وإنّما يُعْتدُّ عندئذ بأنماط عدة من المكانية والزمانية. كل شكل من أشكال الحياة يخلق عالمه (من الجرثومة إلى الشجرة، ومن النخلة إلى الفيل، ومن المحارة إلى الطير المهاجر) ويخلق معه حيّزًا وزمنًا خاصّين. يوسع العالم الثقافي الخاص بالجنس البشري أيضًا هذا التنوع في الأمكنة والأزمنة. فمثلًا، كل نظام اتصال ونقل جديد يغير نظام التقاربات العملية، أي الحيز الملائم للمجموعات البشرية. وحين نبني شبكة سكك حديدية، فكأننا نقرّب فيزيائيًا المدن أو المناطق المترابطة بالسكة الحديديّة بعضها من بعض، ونبعد من تلك المجموعة المدن والمناطق غير المترابطة. ولكن بالنسبة إلى الذين لا يستخدمون القطار، تبقى المسافات السابقة على ما هي عليه. ونستطيع أن نقول الشيء نفسه عن السيارة والنقل الجوي والهاتف ...إلخ. يتم إذًا خلق حالة تتعايش فيها عدة أنظمة تقاربات وعدة فضاءات عملية.

بطريقة مشابهة، تبني أنظمة تسجيل ونقل متعددة (التحادث الشفهي، الكتابة، التسجيل السمعي البصري، الشبكات الرقمية) إيقاعات وسرعات ونوعيات رواية مختلفة. وكل ترتيب جديد، وكل «آلة» تقنية اجتماعية، تضيف زمانًا ومكانًا وخريطة خاصة ونغمًا فريدًا إلى نوع من التشابك المرن والمعقد حيث تتقاطع المساحات وتغير شكلها وتترابط، وحيث تتعارض المُدَد الزمنية وتتداخل وتتجاوب. إن التكاثر العصري للفضاءات يجعل منا بدوًا رحّلًا بأسلوب جديد، إذ عوضًا عن تتبع خطوط سير وهجرة ضمن مساحة معطاة، فإننا

نقفز من شبكة إلى أخرى ومن منظومة تقارب إلى أخرى. فتتغير الفضاءات وتتشعب تحت أقدامنا دافعة بنا إلى تكوين متغاير.

لم يبدأ الافتراض بالانفكاك عن وسط خاص مع الإنسان. بل إنه موجود في قصة الحياة نفسها. فمن وحيدات الخلية إلى الطّيور والثديات، فتحت تحسينات الحركة بحسب جوزيف رايشهولف (Joseph Reichholf) «فضاءات أكثر اتساعًا دومًا وإمكانات متزايدة لوجود الكائنات الحية» [Reichholf, 1994, p.222]. إنّ ابتكارًا يشكل سرعات جديدة يعدُّ الخطوة الأولى للافتراضان.

لاحظ رايشهولف أن «عدد الأشخاص الذين يتقلون عبر المحيطات في فترات العطل في عصرنا يفوق العدد الإجمالي للرجال الذين شاركوا في الغزوات الكبيرة» [Reichholf, 1994, p.226]. ويتزامن تسارع الاتصالات مع الزيادة الكبيرة في الحركية الفيزيائية. ويتعلق الأمر في الواقع بالموجة الافتراضية نفسها. تعتبر السياحة اليوم الصناعة الأولى في العالم من حيث رقم الأعمال. ويتجاوز الوزن الاقتصادي للنشاطات التي تدعم وظيفة التنقل الفيزيائي وتحافظ عليها (عربات، بنى تحتية، وقود) بكثير ما كان عليه في القرون الماضية. هل سيحل تكاثر وسائل الإعلام وزيادة سرعات الاتصال محل الحركية الفيزيائية؟ لا نعتقد ذلك، لأن هاتين الزيادتين كانتا متوازيتين حتى تاريخ اليوم. إنّ الأشخاص الذين يتواصلون هاتفيًّا بشكل أكبر هم أيضًا من يجتمعون بأكبر عدد من الأشخاص بلحمهم ودمهم. ونؤكد مرة أخرى أن فيض الاتصالات وانتشار النقل السريع يساهمان في حركة افتراضان المجتمع نفسها وفي الجهد نفسه للخروج من الـ«هنا».

لقد عقّدت ثورة النقل الفضاء وضيّقته وغيّرته، لكنّ ذلك كان حتمًا على حساب تدهور كبير للبيئة التقليدية. وكما في مسائل النقل، علينا أن نتساءل عن الثمن الذي سندفعه من أجل الافتراضان المعلوماتي. ما هو الوقود الذي نحرقه من دون أن نكون قادرين على حسابه؟ ما الذي يتعرض للاهتراء والتلف؟ هل يوجد تدهور لمعطيات معينة؟ تبقى هنا الركيزة النهائية شخصية. وكما عالج علم البيئة التلوث بإعادة التأهيل والتقنيات الملائمة للهدر، فإن على علم البيئة الإنساني أن يواجه التجريد من الأهلية وتراكم الفضلات الإنسانية (ما يسمى بالـ«مستبعدين») بالتعليم المستمر وإضفاء القيمة على الكفاءات.

لنتذكر من خلال طرح مفهوم الخروج من الـ«هنا» بأن الافتراضان لا يكتفي بتسريع عمليات معروفة سابقًا أو تهميش الزمن أو الفضاء أو حتى إلغائهما، كما يدعي بول فيريليو (Paul Virilio)، بل إنه يبتكر، على رغم النفقات والمجازفة، سرعات نوعية جديدة وأمكنة وأزمنة متبدّلة.

مفعول موبيوس (Mœbius)(*)

بالإضافة إلى التهجير، هناك غالبًا ميزة مرتبطة بالافتراضان وهي العبور من الداخل إلى الخارج ومن الخارج إلى الداخل. ويتجلّى «مفعول موبيوس» في مجالات عديدة: في العلاقات بين الخاص

(*) نسبةً إلى الرياضيّ الألمانيّ أوغست فرديناند موبيوس (August Ferdinand Mœbius). وموضوع التجربة شريط دائريّ متّصل متموّج ذو سطح واحد على نقيض الشريط التقليدي ذي السطحين المتقابلين. وقد غدا هذا الطرح الرياضيّ الهندسيّ موضوعًا لجملة من الأفلام تطرح فكرة العوالم المتوازية والاختراق الممكن بينها جيئة وذهابًا.

والعام، بين الذاتي والمشترك، بين الشخصي والموضوعي، بين الخريطة والإقليم، بين المؤلف والقارئ ...إلخ. سأضرب أمثلة لذلك في ما يلي، ولكن لكي نستطيع أن نشكل صورة من الآن، يمكن توضيح تلك الفكرة في الحالة التي ذكرت سابقًا والتي تخص افتراضان المؤسسة.

كان للموظف التقليدي مكتب خاصّ به. وفي المقابل، فإن المشارك في المؤسسة الافتراضية يشارك الموظفين الآخرين عددًا معيّنًا من الموارد الثابتة والمنقولة والبرامج المعلوماتية. كان الفرد في المؤسسة العادية يتنقل من الحيز الخاص لمنزله إلى الحيز العام في مكان العمل. وعلى النقيض من ذلك، فإن العامل عن بعد يحوِّل حيزه الخاص إلى حيز عام، والعكس بالعكس. وعلى الرغم من أن العكس هو الذي يحدث غالبًا، فإنه يستطيع أحيانًا أن يدير الزمانية العامة بحسب معايير شخصية بحتة. وليست الحدود أمرًا مفروغًا منه، إذ تختلط الأمكنة والأزمنة وتحلُّ كسرانية التوزيعات محل الحدود الواضحة. ويتم هنا التشكيك حتى في مفهومي الخاص والعام. فلنتابع: لقد تكلمت عن «عضو» في المؤسسة ويفترض ذلك تحديدًا واضحًا للانتماءات. بيد أن هذا هو ما يبدأ على وجه التخصيص في خلق مشكلة، إذ تمتد سلسلة مستمرة بين الأجير التقليدي بعقد عمل دائم، والأجير بعقد عمل مؤقت، والمستخدم المؤقت، والمستفيد من الخدمات الاجتماعية، والعضو في مؤسسة شريكة أو زبونة أو موردة، والمستشار من وقت إلى آخر، والمستقل الوفي للشركة. وعند كلّ نقطة من السلسلة المستمرة يعاد طرح السؤال في كل لحظة: لمن أعمل؟ إن أنظمة الإدارة الإلكترونية للوثائق بين المؤسسات

ومجموعات المشاريع المشتركة بين عدة منظمات تنسج غالبًا علاقات بين مجموعات العمل المختلطة أقوى من تلك التي تربط بشكل سلبي أشخاصًا ينتمون رسميًا إلى الكيان القانوني نفسه. إن التوزيع المتساوي للموارد والمعلومات والكفاءات يحرّض هذا النوع من التردّد أو عدم التميز الفاعل وكلّ حلقة من حلقات الارتداد بين الظاهرية والباطنية.

لا توجد حدود واضحة للأشياء إلّا في الحقيقي. فالافتراضان الّذي هو عبور إلى الإشكالية وانزياح للشخص عن المسألة، هو بالضرورة تشكيك في الهوية التقليدية المخمَّنة من خلال تعريفات وتحديدات وإقصاءات وإدراجات واستبعاد للغير. ولهذا السبب، فالافتراضان مكوّن دومًا من تباين، وهو تبدل لحالة أخرى واستقبال للغيرية. ولا ينبغي بالطبع أن نخلط التكوين المتباين مع نقيضه القريب والمهدد له وشقيقه اللدود، وأقصد الاستلاب الذي يتميَّز بالتشييء، أي إضفاء الطابع المادي أو التحويل إلى الشيء، إلى «الواقع».

سيتم التوسع في كل هذه المفاهيم وإيضاحها في الفصول المقبلة، عبر ثلاث حالات ملموسة: الافتراضانات المعاصرة للجسد والنصّ والاقتصاد.

2

افتـرضـان الجسـد

إعادات البناء

نحن موجودون في آن واحد هنا وهناك، بفضل تقنيات الاتصال والتواجد عن بعد. يجعل التصوير الطبي داخليّتنا العضوية شفافة. وتمزجنا عمليات الزرع والأجهزة الاصطناعية بالآخرين وبالأشياء المصنوعة. وامتدادًا للأمور الحكيمة المتعلقة بالجسد وفنون الطعام القديمة، فإننا نخترع اليوم مئة طريقة لبنائنا وإعادة تشكيلنا: من تغذية وبناء للأجسام وجراحة تجميلية. فنفسد استقلابنا الشخصي بالعقاقير أو الأدويـة التي هي عناصر فيزيولوجية عابرة للجسد أو إفرازات مشتركة... وتجد الصناعة الدوائية جزيئات دوائية جديدة فاعلة بانتظام. والتكاثر، والمناعة ضد الأمـراض، وتنظيم المشاعر، كل هذه العمليات الخاصة تقليديًّا تتحول إلى قدرات علنية قابلة للتبديل وظاهرية. وانطلاقًا من استشراك الوظائف الجسدية إلى التحكم الذاتي بالعواطف أو المزاج بالكيمياء العضوية الصناعية، فإن حياتنا الجسدية والنفسية أصبحت تمر أكثر فأكثر عبر «ظاهرية» معقدة حيث تتشابك الدارات الاقتصادية والمؤسساتية والتقنية العلمية. وأخيرًا، فإن التقانات البيولوجية تجعلنا ننظر إلى أنواع النباتات أو الحيوانات الحالية (وحتى الجنس البشري) على أنها حالات خاصة وربما

حالات محتملة ضمن مسترسل افتراضيّ أكبر من ذي قبل، وغير مستكشف بعد. وكما هي الحال بالنسبة إلى افتراضان المعلومات والمعارف والاقتصاد والمجتمع، فإن افتراضان الأجسام الذي نختبره اليوم هو خطوة جديدة في مغامرة الخلق الذاتي التي يدعمها جنسنا.

المدارك

لندرس الآن بعض الوظائف الجسدية بالتفصيل لكي نفكك السيرورة الافتراضانيّة المعاصرة للجسم. ولنبدأ بالإدراك الذي يكمن دوره في جلب العالم إلى هنا. لقد تم بوضوح إخراج هذه الوظيفة إلى الظاهر بواسطة أنظمة الاتصال عن بعد. الهاتف للسمع، والتلفاز للرؤية، وأنظمة التداول عن بعد للحس والتفاعل الحسي-الحركي، كل هذه الأجهزة تقوم بالمحاكاة الافتراضية للحواس. وبهذا الشكل فإنها تنظم تقاسم الأعضاء المحاكاة افتراضيًّا. ويشترك الأشخاص الذين يشاهدون البرنامج التلفزيوني ذاته مثلًا في العين الكبيرة الجماعية ذاتها. وبإمكاننا أن نشعر بأحاسيس الشخص الآخر في وقت وزمان مختلفين بفضل أجهزة التصوير والكاميرات وآلات التسجيل. وتتيح لنا أنظمة ما يدعى بالحقيقة الافتراضية أن نختبر أيضًا الاندماج الدينامي لمختلف الطرق الإدراكية. وباستطاعتنا تقريبًا أن نعيش من جديد التجربة الحسية الكاملة لشخص آخر.

الإسقاطات

إن الوظيفة المعاكسة للإدراك هي إسقاط الحركة والصورة على العالم. ويرتبط إسقاط الحركة حتمًا بالآلات وشبكات النقل ودارات

الإنتاج ونقل الطاقة والأسلحة. وفي هذه الحالة، يشترك عدد كبير من الأشخاص في الأذرع الافتراضية الضخمة والمهجَّرة. ولا داعي للتوسع مطوّلًا في هذه الناحية التي تتعلق تحديدًا بتحليل الظاهرة التقنية.

ويرتبط إسقاط صورة الجسد عمومًا بمفهوم الوجود عن بعد. لكن الوجود عن بعد هو دومًا أكثر من مجرد إسقاط للصورة.

يعمل الهاتف مثلًا كجهاز وجود عن بعد. فلا ينقل صورة أو تمثيلًا للصوت فحسب، بل ينقل الصوت نفسه. يفصل الهاتف الصوت (أو الجسم الصوتي) عن الجسم الملموس وينقله بعيدًا. جسمي الملموس كائن هنا وجسمي الصوتي المضاعف موجود هنا وهناك. ويفعّل الهاتف شكلًا جزئيًا من الانتشار الواسع، وبدوره يصاب الجسم الصوتي للشخص المتحدث معي بالازدواج نفسه، بحيث إنّ كلينا موجودان هنا وهناك لكن مع تقاطع في توزيع الأجسام الملموسة.

وتنقل أنظمة الحقيقة الافتراضية أكثر من صور: إنها تنقل شبه حضور. فالمستنسَخون الذين هم عوامل مرئية أو دمًى افتراضية نتحكم فيها بحركاتنا، بإمكانها أن تؤثر في دمًى أخرى وتغيرها أو في عوامل مرئية، بل بإمكانها حتى أن تشغّل أجهزة «حقيقية» عن بعد وأن تؤثّر في الحياة العادية. يتمّ نقل بعض وظائف الجسم، كالمقدرة على استخدام الأيدي، المرتبطة بالدارة الحسية الحركية في الزمن الحقيقي، بعيدًا عبر سلسلة طويلة تقنية معقدة يتحسن التحكم بها تدريجيًا في بعض الأوساط الصناعية.

ما الذي يجعل الجسم مرئيًا؟ إنه سطحه: الشعر، والجلد، وبريق النظر. بيد أن الصور الطبية تتيح النظر إلى داخل الجسم من دون ثقب الجلد الحساس أو بَضْع الأوعية الدموية أو تقطيع الأنسجة. وكأنما تظهر بشرات أخرى، وأدمات مطمورة، وسطوح غير متوقعة آتية من أعماق الجسم.

تقوم الأشعة السينية والتصوير المحوري الطبقي وأجهزة الرنين المغنطيسي النووي والأمواج فوق الصوتية وكاميرات البوزيتون بالمحاكاة الافتراضية لسطح الجسم. ويمكننا، اعتبارًا من هذه الأغشية الافتراضية، إعادة تكوين أنماط رقمية للجسم بثلاثة أبعاد، وانطلاقًا من ذلك، تشكيل مجسمات صلبة تفيد الأطباء مثلًا في الإعداد لعملية جراحية. ولكل هذه الغلافات وكل هذه الأجسام الافتراضية تأثيرات حالية مهمة جدًّا في التشخيص الطبي وفي الجراحة. وفي المملكة الافتراضية، لا يتسبب التحليل وإعادة تكوين الجسم بالألم ولا بالموت، ويصبح الجلد المحاكى افتراضيًّا نَفوذًا. وباستطاعتنا اليوم معرفة جنس الأطفال ووجوههم تقريبًا قبل ولادتهم.

يضيف كل جهاز جديد نوعًا من الجلد أو جسدًا مرئيًّا للجسم الحالي. ويصبح الجسم مقلوبًا كالقفّاز. فينتقل الداخل إلى الخارج مع بقائه دومًا في الداخل. فالجلد هو أيضًا الحد الفاصل بين الذات والخارج. ويُحْدِث بفضل أجهزة التصوير الطبية ترقيقًا للأغشية

باتجاه مركز الجسم. وبفضل الوجود عن بعد وأجهزة الاتصال، تتكاثر الأجسام المرئية والمسموعة والمحسوسة وتتبعثر في الخارج. وكما يحدث في عالم لوكريس (Lucrèce)(*)، ينبعث من أجسادنا عدد كبير من البشرات أو أطياف شبيهة بالبشرة هي: المظاهر الخداعة.

الجسم التشعبي

تحثّ افتراضية الجسم على الأسفار وكل أنواع التبادل. وتنظم عمليات الزرع تداولًا كبيرًا بالأعضاء بين الأجسام البشرية، من فرد إلى آخر وبين الأموات والأحياء. وضمن الجنس البشري، ولكن أيضًا من جنس إلى آخر، تتم زراعة قلوب القردوح (babouin) وأكباد الخنازير في الناس، ونجعلهم يتناولون هورمونات صنعتها الجراثيم. فتغيِّر المزدرعات الحية والأجهزة الاصطناعية الحدود بين الجماد والأحياء: نظّارات، وعدسات، وأسنان اصطناعية، وسيليكون، وجهاز تنظيم دقّات القلب، وأجهزة سمع، ومزدرعات سمعية، ومصافٍ خارجية تحل محل الكلى السليمة.

(*) لوكريس (Titus Lucretius Carus)، فيلسوف وشاعر روماني، لم يترك إلّا كتابًا واحدًا غير مكتمل وهو في طبيعة الأشياء (*De rerum natura*)، وقد استعاد فيه أهمّ تصوّرات الفلسفة الأبيقوريّة، وألحق بها مفهوم العدول الذرّي (clinamen). وقد اتّخذ لوكريس موقفًا نقديًّا من التصورات الميتافيزيقيّة والتفسيرات العليّة، ورأى في السقوط الحرّ للذّرّات وما قد يعتري الذرّات من انحراف عن الخطّ المستقيم المتوقّع، ضربًا من الحريّة الميكانيكيّة، وهي عنده قريبة الشبه من الحريّة الإنسانيّة.

لقد أصبحت العيون (القرنيات)، والسائل المنوي، والبيوض، والأجنة والدم بشكل خاص الآن مستشرَكة ويستفيد الجميع منها، ويتم حفظها في بنوك خاصة. يسيل الدم الآتي من لامكان محدد ومن جسم إلى آخرعبر شبكة دولية ضخمة لا يمكن تمييز مكوّناتها الاقتصادية والتقانية والطبية. ويروي سائل الحياة الأحمر جسدًا جماعيًّا عديم الشكل ومبعثرًا. ويغادر الجسد والدم سويةً الحميمية الشخصية ليعبرا إلى الخارج. ولكنّ هذا الجسد العام يعود إلى الشخص الذي استفاد من الزرع أو نقل الدم أو إلى مستهلك الهورمونات. يعود الجسد المشترك لتغيير الجسد الخاص، ويبعث فيه أحيانًا الحياة من جديد أو يُخْصِبه في المختبر (*in vitro*).

كان تشكيل جسم جماعي ومشاركة الأفراد في هذا المجتمع الفيزيائي يتمّ ولفترة طويلة عبر وساطات رمزية صرف أو دينية: «هذا جسدي، هذا دمي»، أما حاليًّا فإنه يجري من خلال وسائل تقنية.

وكما كنا نتشارك منذ فترة طويلة شيئًا من الذكاء والنظرة إلى العالم مع الذين يتحدثون اللغة نفسها، فإننا اليوم نتشارك افتراضيًّا جسدًا متصلًا مع الذين يساهمون في الشبكات التقنية والطبية ذاتها. كل جسم فردي يصبح جزءاً أساسيًّا من جسم تشعبي هائل وهجين ومعولم. وكما أن القشرة الدماغية التشعبية تدفع اليوم بعصبوناتها في الشبكات الرقمية في العالم، فإن جسد الإنسانية التشعبي ينشر أنسجته الوهمية بين طبقات الجلد، وبين الأجناس وإلى ما وراء الحدود والمحيطات ومن ضفة إلى أخرى في نهر الحياة.

التكثيفات

يشهد عصرنا تطور ممارسة رياضية طاولت نسبة كبيرة من السكان لم نشهدها من قبل، كردة فعل على افتراضان الأجسام. لا أتحدث هنا عن الأجسام «السليمة» والرياضية التي تروّج لها الأنظمة السياسية المتسلطة أو مجلات الموضة والدعاية ولا حتى عن الرياضات الجماعية التي سأتناولها في فصل افتراضان الذكاء. إنني أتحدّث عن هذا الجهد المبذول لتجاوز الحدود وفتح آفاق جديدة وزيادة الإحساسات واستكشاف سرعات أخرى وهو ما يتجلّى من خلال انفجار رياضي خاص بعصرنا.

عن طريق السباحة (وهي رياضة كانت تمارس نادرًا قبل القرن العشرين) نقوم بالتآلف مع الوسط المائي ونتعلم التخلص من الارتكاز إلى القاع ونختبر طريقة جديدة في الإحساس بالعالم وأن نكون محمولين في الفضاء. الغطس في الأعماق كهواية يزيد الإحساس بالغربة. لم يكن علم استكشاف الأغوار الذي يشدّنا «نحو مركز الأرض» ممارسًا أبدًا قبل جول فيرن (Jules Verne). يعرّض تسلق الجبال الأجسام إلى ندرة الهواء والبرد القارس والانحدار القاسي، ولهذا السبب تحديدًا أصبح تسلّق الجبال شبه رياضة شعبية. وتحدث في كل حالة حركة الخروج من الإطار، والتهجين، والصيرورات نفسها التي تكاد تفضي إلى التحول فنصبح سمكة أو ظبيًا أو طائرًا أو وطواطًا.

ومن بين رياضات الصيرورة وبلوغ الحدود القصوى الأكثر رمزية، نود أن نذكر ممارسات القفز (بالمظلة، بالمظلة المرنة،

بالحبل المطاطي) والانزلاق (التزلج في الجبال، التزلج في الماء، اللوحة الشراعية، ركوب الأمواج). هذه الرياضات هي نوع من ردة الفعل على الافتراضان. ولا تحتاج هذه الرياضات الفردية بشكل خاص إلى تجهيزات جماعية مهمة، ولا تستخدم غالبًا إلّا تجهيزات بسيطة. إنها تزيد بشكل خاص من شدة الوجود الفيزيائي هنا والآن، وتلتقي مع الشخص في مركزه الحيوي، في «نقطة وجوده» الزائلة. فيبدو التفعيل فيها مَلِكًا.

ومع ذلك، لا يمكن الحصول على هذا التجسيد الأقصى في هذا المكان وفي هذه الساعة إلّا بزعزعة الحدود. ما بين الهواء والماء، ما بين الأرض والسماء، ما بين القاعدة والقمة، لا يمكن اعتبار ممارس ركوب الأمواج أو المظلّيّ موجودًا هنا تمامًا. فبعد أن يغادر الأرض ونقاط ارتكازه، يركب التيارات، وينزلق في السطوح البينية، ولا يتبع سوى خطوط الهرب، فيتحول إلى ناقل ويهاجر. وبامتطاء الأمواج، والعيش في كنفها، يتم استنساخ راكب الأمواج الكاليفورني بمتصفح للإنترنت. وتحيل أمواج المحيط الهادئ إلى الفيض المعلوماتي، والجسم التشعبي إلى القشرة الدماغية التشعبية. يخضع جسم السقوط أو الانزلاق للجاذبية، لكنه يلعب بالتوازنات حتى يصبح جوّيًا ويفقد ثقله. إنه يصير سرعة، وعبورًا، وتحليقًا. يتصاعد حتى حين يبدو متساقطًا أو مسرعًا أفقيًا، هذا هو الجسم البهي لممارس رياضة القفز بالمظلّة أو ركوب الأمواج، أي جسمه الافتراضي.

هكذا يخرج الجسد من نفسه ويكتسب سرعات جديدة ويفتح فضاءات جديدة. إنه ينسكب إلى الخارج ويقلب الظاهرية التقنية أو الغيرية البيولوجية إلى ذاتية ملموسة. يتكاثر الجسم حين يحاكي نفسه افتراضيًا. فنخلق لأنفسنا أجسامًا افتراضية تغني عالمنا الحساس من دون أن نفرض الإحساس بالألم على أنفسنا. هل ما يحدث هو التجرد؟ لقد تحقّقنا من خلال مثال الجسم من أنه لا يمكن اختزال الافتراضان في عملية اختفاء أو إلغاء للطابع المادي. ونذكّر هنا ولو اضطررنا للتكرار، من أنه يتم تحليل الافتراضان بشكل أساسي على أنه تغيير للهوية وعبور من حل خاص إلى إشكالية عامة أو تحول نشاط خاص ومحدد إلى آلية عمل منقولة من مكانها، غير متزامنة وموضوعة في خدمة المجتمع. ليس افتراضان الجسم إذًا عملية تجرد وإنّما إعادة ابتكار وتقمص وتكاثر ودفع موجّه (vectorisation) وغير متجانس للإنسان. ومع ذلك، فالحدود ليست مثبّتة أبدًا بشكل نهائي بين التكون غير المتجانس والاستلاب، بين التفعيل والتشييء التجاري، بين الافتراضان والبتر. ويجب تقويم هذه الحدود المترددة بلا انقطاع، وإعادة تقويمها بتكاليف جديدة من الأشخاص ليتدبروا حياتهم، وكذلك من المجتمعات في إطار قانوني.

جسمي الشخصي هو التفعيل المؤقت لجسم تشعبي ضخم وهجين واجتماعي وتقاني حيوي. يشبه الجسم المعاصر شعلة، وهو غالبًا صغير ومعزول ومنفصل وجامد تقريبًا. تراه في ما بعد يركض خارجًا من ذاته ويصبح أقوى بفضل الرياضات أو العقاقير،

فيمرّ عبر قمر صناعي ويقذف بعض الأذرعة الافتراضية عاليًا جدًّا في السماء عبر شبكات الطب أو الاتصالات. ويرتبط حينها بالجسم العام ويشتعل بحرارة الأجسام المشتعلة الأخرى ويلمع بضيائها. ثم يعود، بعد أن يتبدل، إلى نطاق خاص به... وهكذا دواليك، أحيانًا هنا، وأحيانًا في كل مكان، وأحيانًا ضمن نفسه، وأحيانا ممزوجًا، ثم يأتي يوم ينفصل فيه تمامًا عن الجسم التشعبي وينطفئ.



3

افتـرضـان النـصّ

القراءة أو تفعيل النص

يعتبر النص منذ نشوئه في بلاد الرافدين شيئًا افتراضيًّا ومجرّدًا ومستقلًّا عن أيّ ركيزة خاصة. هذا الكيان الافتراضي يُفعَّل بلغات وترجمات وإصدارات ونسخ وصور عديدة. وبتفسير النص وإعطائه معنًى هنا والآن، يتابع القارئ هذا التدفق من التفعيلات. أتكلم هنا عن التفعيل الذي يخص القراءة لا عن التحقيق بإجراء الخيار بين النصوص الممكنة الموجودة. وإزاء مجموعة من المحفّزات والقيود والتوتّرات التي يتسبب بها النص، فإن القراءة تحل بطريقة مبتكرة ومتفردة مشكِّلة المعنى دومًا. ويرفع ذكاء القارئ فوق الصفحات الملساء مشهدًا دلاليًّا متحرّكًا ومتموّجًا. فلنحلل بالتفصيل عمل التفعيل هذا.

ماذا يحدث حين نقرأ أو نسمع نصًّا؟ يكون النص قبل كل شيء مليئًا بالثغرات ومسودًا بالحبر وتتخلله مسافات بيضاء. إنها الكلمات أو أجزاء الجمل التي لا نفهمها (على الصعيد الإدراكي وعلى الصعيد الفكري). وأجزاء النص التي لا نفهمها ولا نأخذها مجتمعة ولا ندمجها مع غيرها هي التي نهملها، بحيث ـ وللمفارقة ـ تبدأ القراءة والإصغاء بإهمال وعدم قراءة النص أو فكّه.

وفي الوقت الذي «نمزّق» النص بالقراءة أو بالإصغاء فإننا نلويه، ونغلقه على نفسه، ونربط بين مقتطفاته المترابط بعضها ببعض، ونقوم بحياكة الأجزاء المتفرقة والممتدة والمبعثرة على سطح الصفحات أو في سياق الخطاب بعضها مع بعض: إن قراءة نص هي إيجاد حركات الحياكة التي أعطته اسمه.

وتغذّي فقرات النص افتراضيًا نوعًا من التراسل أو بالكاد نشاط مراسلات، فنقوم بتفعيله بطريقة أو بأخرى باتباع تعليمات المؤلف أو بعدم اتباعها. ونسافر كسُعاة بريد للنص في فضاء المعنى من طرف إلى آخر بالاستعانة بنظام العنونة والتأشير الذي قام المؤلف والناشر والمنضّد بتحديد معالمه. ولكننا نستطيع أن نخالف التعليمات ونتبع طرقًا مختصرة ونحدث ثنياتٍ ممنوعة ونحبك شبكات سرية خفية ونبرز جغرافيّات دلالية أخرى.

هذا هو عمل القراءة: إنها تقوم انطلاقًا من خطية أو سطحية بدائية، بتمزيق النص وليّه وثنيه وإعادة خياطته لفتح وسط حيّ ينتشر فيه المعنى. حيّز المعنى غير موجود قبل القراءة. وبتصفح النص وتحديد معالمه فإننا نصنعه ونفعّله.

وفي الوقت الذي نطوي النص على نفسه لإظهار علاقته بنفسه وحياته المستقلة وهالته الدلالية، نقوم أيضًا بربط النص بنصوص أخرى وخطابات أخرى وبصور وإحساسات وبكل الاحتياطي الضخم المتموج من الرغبات والإشارات التي تدخل في تركيبنا. وليس المهم هنا وحدة النص ولكن بناء الذات، وهو بناء غير مكتمل

يجب استئنافه دومًا. ما يهمنا ليس معنى النص وإنّما تكوين فكرنا وروجهته وتوضيح صورة العالم لدينا وبلوغ مشاريعنا أهدافها وإيقاظ لذّاتنا وتسلسل أحلامنا. ولا يكون النص هنا مشوهًا ومنغلقًا كالكرة على نفسه، ولكنه يكون مقطّعًا ومسحوقًا وموزّعًا ومقوّمًا بحسب معايير ذاتية تولد من نفسها.

قريبًا لن يبقى من النص نفسه شيءٌ، وفي أحسن الأحوال نكون بفضله قد وضعنا بعض اللمسات على نماذج العالم التي بحوزتنا. قد يكون النص ساعدنا فحسب على التجاوب مع بعض الصور أو بعض الكلمات التي كنا نملكها. وأحيانًا ننقل منه بعض أجزائه ذات الأهمية الخاصة إلى تلك المنطقة في بنيان ذاكرتنا وجزءًا آخر إلى منطقة في شبكاتنا الفكرية. فنكون قد استفدنا من النص كواجهةٍ بينية مع أنفسنا. ونادرًا ما يكون إصغاؤنا وقراءتنا مؤدّين إلى إعادة تنظيم مهمة لكوكبة التصورات والأحاسيس التي تشكلنا.

إنّ الإصغاء والنظر والقراءة هي في النهاية عملية بناء للذات. وبالانفتاح على مجهود المعنى الآتي من الآخر، وبالعمل على النص وثقبه وتشويهه وتقطيعه، وبإدماجه بنا وتدميره، نساهم في كتابة مشهد المعنى الذي يسكننا. يفيد النص هنا كناقل وركيزة أو حجة لتفعيل حيزنا الذهني الخاص.

ونعهد أحيانًا ببعض أجزاء النص إلى شعوب الإشارات التي تمارس البداوة فينا. هذه الرايات والذخائر والتمائم والآلهة لا علاقة لها بنوايا الكاتب ولا بالوحدة الدلالية الحية للنص ولكنها تساهم في خلق عالم المعاني المتمثل فينا وإعادة خلقه وتفعيله.

قد يكون هذا التحليل قابلًا للتطبيق على تفسير أنماط أخرى من الرسائل المعقدة غير النص الأبجدي، مثل الرموز الفكرية (idéogrammes) والرسوم البيانية (diagrammes) والخرائط والخطاطات والمحاكاة والرسائل الأيقونية أو الفلمية مثلًا. ويجب أن نفهم كلمة «نص» بالمعنى الواسع، أي كلّ خطاب تم إعداده أو كلام متعمّد.

منذ بداية هذا الفصل، ما قرأتم عبارة «نص تشعبي» بعدُ، ومع ذلك لم يكن المقصود غير ذلـك. إن تصنيف مناطق ذات معنى وانتقاءها، وربط بعضها ببعض، ووصل النص بوثائق أخرى، وضمه إلى ذاكرة شاملة تشكل القاعدة التي ينفصل عنها أو يحيل إليها: كل ذلك يدخل في وظائف النص التشعبي المعلوماتي.

تقوم التقانة الفكرية دومًا تقريبًا بإظهار وظيفة إدراكية أو نشاط ذهني ما وتجسيدهما ومحاكاتهما. إنها بعملها هذا تعيد تنظيم الاقتصاد الذهني أو البيئة الذهنية في مجملها وتغيّر بالمقابل الوظيفة الإدراكية التي كان من المفترض أن تساعدها أو تقويها فحسب. وتشهد على ذلك العلاقات بين الكتابة (تقانة فكرية) والذاكرة (وظيفة إدراكية).

لقد سرّع ظهور الكتابة اصطناعيّة الذاكرة وإظهارها وافتراضان الذاكرة، الذي بدأ بلا شك مع البشرنة. إنّه افتراضان، وليس مجرد امتداد؛ أي فصل جزئي لجسم حي وتجميع وتكوين متباين. ولا

يمكن اختزال الكتابة بتسجيل الكلام. وفي المقابل، وبعد أن نجحت الكتابة بجعلنا نعتبر الذاكرة تسجيلًا، قامت بتغيير وجه منيموزين (Mnémosyne)[*].

إن التجسيد النصفي للذاكرة في النص قد أتاح من دون شك تطور تقليد نقدي. والكتابة تخلق في الواقع مسافة بين المعرفة والموضوع المتعلق بها. وربمّا لأنني لستُ ما أعرف، فهذا ما يساعدني في التشكيك به.

كون الكتابة تدفع إلى الافتراضان فإنّها تخلّ بالتزامن وبتغيُّر المكان. لقد دفعت الكتابة إلى ظهور نظام للتواصل تكون فيه الرسائل منفصلة غالبًا في الزمان والمكان عن مصدر إرسالها، وبالتالي يتم تلقيها خارج إطارها. وفي ما يخص القراءة، فقد وجب إذًا تحسين الممارسات التفسيرية. أما في ما يخص الكتابة، فيجب علينا أن نتخيل أنّ أنظمة نصوص مكتفية بذاتها ومستقلة عن الظروف، قد شجعت على الرسائل التي تستجيب لمعيار الشمولية العلمية أو الدينية.

ومع الكتابة، وكذلك الأبجدية والطباعة، تقدمت أنماط المعرفة النظرية والتأويلية على المعارف السردية والطقسية للمجتمعات الشفهية. إن لزوم وجود حقيقة عامة، موضوعية ونقدية لم يفرض نفسه إلّا من خلال بيئة إدراكية مهيكلة لحد كبير بالكتابة أو بشكل أدق بالكتابة على ركيزة ثابتة.

(*) منيموزين (Mnémosyne) : تعدّ منيموزين في الأساطير الإغريقيّة القديمة إلهة مؤسّسة، وهي التي ابتدعت اللغة والكتابة بحسب هذه المرويّات الأسطوريّة.

إن النص المعاصر الـذي يغذي المراسلات على الإنترنت والمؤتمرات الإلكترونية، والمنساب في الشبكات، والسائل، والمهجَّر، والمنغمس في بحر الفضاء السيبراني، هذا النص الدينامي ولكن على صعيد أعلى بكثير، يعيد تشكيل الوجود المشترك للرسالة وسياقها الحي المحيط بها، والذي يميِّز التواصل الشفهي. فتتغير بذلك المعايير من جديد، وتقترب من معايير الحوار أو المحادثة: الملاءمة من حيث التوقيت بين القراء والأماكن الافتراضية، والإيجاز بفضل إمكان الإشارة فورًا إلى المراجع، والفعالية، لأن إسداء خدمة إلى القارئ (وبخاصّة مساعدته على التصفح) هي أفضل وسيلة للتميُّز في الطوفان المعلوماتي.

الرقمنة أو إمكانويّة النصّ

يملك النص الجديد أوّلًا خصائص تقنية يجب تحديدها ويندرج تحليلها كما سنرى ضمن جدلية الممكن والحقيقي. ويجابَه قارئ الكتاب أو المقال الورقي بغرض فيزيائي تظهر فيه بشكل كامل ترجمة محددة لنص ما. وباستطاعة هذا القارئ أن يضع ملاحظات على الهامش أو يصور نسخة أو يقص ويلصق أو يقوم بإعادة تركيب الكتاب. لكن النص الأولـي يبقى موجودًا هنا، حبرًا على ورق وبشكل كامل. وفي ما يخص القراءة على الشاشة، فإن هذا الحضور الواسع والسابق للقراءة قد اختفى. ولا تحتوي الركيزة الرقمية (قرص مرن، قرص صلب ممغنط، قرص ضوئي) على نص قابل للقراءة من الإنسان، ولكن على سلسلة من الرموز المعلوماتية التي

يمكن الحاسوب ترجمتها إلى إشارات أبجدية لنظام الإظهار. وتكون الشاشة في تلك الحالة عبارة عن نافذة صغيرة يتمكن القارئ من خلالها من أن يستكشف ذخيرة كامنة.

إنها كامنة وليس افتراضية، لأن الأثر (engramme)(*) الرقمي وبرنامج القراءة يحددان مسبقًا مجموعة ممكنات هائلة ولكنها محددة رقميًا ومغلقة منطقيًا. وليست الكمية هي التي تميِّز الممكن من الافتراضي. إنّ الشيء الأساسي هو غير ذلك: وإذا لم نأخذ بالاعتبار سوى الركيزة الميكانيكية (التجهيزات والبرمجيات)، فإن المعلوماتية لا تقدم سوى تركيبية توافقية وإن كانت لانهائية ولا تقدم حقلًا إشكاليًا أبدًا. إن التخزين بالذاكرة الرقمية هو بمثابة تعزيز، أمّا الإظهار فهو بمثابة تحقيق.

إن النص التشعبي هو قالب لنصوص ممكنة، يتحقق بعضها فحسب تحت تأثير التفاعل مع المستخدم. ولا يدخل أي فرق بين نص ممكن من توافقية تركيبية ونص حقيقي نقرؤه على الشاشة. فمعظم البرامج هي آلات إظهار (تحقيق) لرسائل (نصوص، صور ...إلخ) اعتبارًا من جهاز حاسوبي يحدد عالم ممكنات. ويمكن أن يكون هذا العالم شاسعًا أو يشرك إجراءات عشوائية، ولكنه موجود مسبقًا ويمكن التكهن به. وباتباع المفردات الفلسفية بدقة، لا ينبغي أن نتكلم عن صور افتراضية لوصف الصور الرقمية ولكن عن صور ممكنة معروضة.

(*) engramme: لفظ استعاره الفكر الفرنسي من الألمانيّة (engramm)، وهو ذو أصول إغريقيّة كانت تعني الكتابة، غير أنّه يعني، في السياق الحديث، الأثر البيولوجي الماثل في الذاكرة بأصنافها.

ولا ينبثق الافتراضي إلّا بدخول الذاتيّة الإنسانية في الحلقة، حين يظهر من الحركة نفسها المعنى غير المحدد، ونزعة النص لإعطاء المعنى، ممّا يسبب توترًا يقوم التفعيل، أي التفسير، بحله في القراءة. وبعد أن يجري التميز بين هذين المستويين، مستوى الثنائي «ممكن - حقيقي» و«افتراضي - فعلي»، ينبغي التأكيد فورًا على تغليفهما المتبادل. فالرقمنة والأشكال الجديدة لعرض النص لا تعنينا إلّا بقدر ما تسمح بالانفتاح على طرق أخرى للقراءة والفهم.

وفجأةً، يصبح القارئ على الشاشة أكثر «نشاطًا» من القارئ على الورق: القراءة على الشاشة، وقبل أن نقوم بالتفسير، هي إعطاء الأمر إلى الحاسوب بعرض هذا التحقيق الجزئي من النص أو ذاك على مساحة صغيرة مضيئة.

إذا اعتبرنا الحاسوب أداة لإنتاج النص التقليدي، فإنه ليس سوى أداة أكثر عملية من اقتران آلة كاتبة ميكانيكية بآلة نسخ ومقص وأنبوب مادة لاصقة. وليس للنص المطبوع على الورق، على الرغم من أن الحاسوب قد صنعه، وضع أنطولوجي ولا ملكية جمالية مختلفة بشكل أساسي عن نص مكتوب بأدوات القرن التاسع عشر. ونستطيع أن نقول الشيء نفسه عن صورة أو فيلم أنتجهما الحاسوب وتمت رؤيتهما على ركائز تقليدية.

ولكن إذا أخذنا بالاعتبار مجمل النصوص (وكل الصور) التي يستطيع القارئ عرضها آليًا بالتفاعل المتبادل مع حاسوب اعتبارًا من قالب رقمي، فإننا ندخل عالمًا جديدًا تُولَّد فيه الإشارات وتُقرأ.

وإذا اعتبرنا الحاسوب مجرد أداة إضافية لإنتاج النصوص أو الأصوات أو الصور على ركيزة ثابتة (ورق، فيلم، شريط مغناطيسي) فكأننا ننفي خصوبته الثقافية الخاصة، أي ظهور أنماط أخرى مرتبطة بالتفاعل المتبادل.

إنّ الحاسوب هو قبل كل شيء مشغّل يقوم بتعزيز المعلومة. وبمعنى آخر، وانطلاقًا من مخزون معطيات أولية أو نموذج أو نص سامٍ، يستطيع البرنامج أن يحسب عددًا لانهائيًّا من المظاهر المرئية والسمعية والملموسة المختلفة بحسب الوضع الحالي أو طلب المستخدمين. ولا يستطيع القارئ أن يدرك المرونة الجديدة للنص أو الصورة حقًا إلّا من خلال شاشة أو أجهزة تفاعلية أخرى لأن النص الورقي (أو الفيلم على شريط) هو بالضرورة محقق تمامًا. والشاشة المعلوماتية هي عبارة عن «آلة قراءة» جديدة وهي المكان الذي يتحقق فيه احتياطي المعلومات الممكنة عن طريق الانتقاء هنا والآن لمصلحة قارئ خاص. ولذا، فإنّ كلّ قراءة على الحاسوب هي بمثابة إصدار أو تركيب فريد.

النص التشعبي: افتراضان النصّ وافتراضان القراءة

يمكن أن نقول إنّ عملية القراءة هي بمثابة تفعيل لمعاني النص، إنّه تفعيل وليس تحقيقًا، لأن التفسير يتضمن جزءًا لا يمكن حذفه من عملية الاستحداث. وتشعيب النص (hypertextualisation) هو الحركة العكسية للقراءة، بمعنى أنه يعطي اعتبارًا من نص أولي، احتياطًا نصيًّا وأدوات تركيبية يستطيع المتصفح بواسطتها عرض العديد من النصوص الأخرى. وبذلك يتحول النص إلى إشكالية

نصية. ولكن هنا أيضًا، لا توجد إشكالية إلّا إذا أخذنا بالاعتبار مزدوجة «ناس ـ آلات» لا العمليات المعلوماتية فحسب. ونستطيع حينها أن نتكلم عن افتراضان لا عن إمكانوية فحسب. وفعلًا، لا يمكن استنتاج النص التشعبي منطقيًّا من النص الأساسي، بل من سلسلة من القرارات: ضبط حجم العقد أو العناصر الأساسية، ترتيب الوصلات، بنية السطح البيني للتصفح ...إلخ. وفي حالة تشعيب النص آليًّا، تؤخذ القرارات أو الخيارات (ابتكار هذا النص التشعبي) على مستوى تصميم البرمجيات وانتقائها.

وبعد عرض هذه الحقائق شبه الفنية، يبدو صعبًا جدًّا الحديث في إمكانويّة النص وافتراضانه كظواهر متجانسة. على العكس تمامًا، نحن إزاء تنوع يُعزى بشكل أساسي إلى ثلاثة عوامل متشابكة: طبيعة الاحتياط الرقمي الأولي، وطبيعة البرمجيات الاستشارية، وطبيعة جهاز الاتصالات.

ولا تتم قراءة النص الخطي التقليدي، وإنْ كان مرقمنًا، كنص تشعبي حقيقي ولا كقاعدة معلومات ولا كنظام يعطي تلقائيًّا نصوصًا بحسب التفاعلات المتبادلة التي يغذيها القارئ.

إنّ القارئ موصول ببرنامج قراءة وتصفح أكثر من صلته بالشاشة. أفَلا يسمح البرنامج إلّا بتسلسل مقاطع (تمامًا كالبرامج الأولى لمعالجة النصوص التي أدت خلال فترة زمنية إلى تراجع القراءة ووصلت إلى حد الاستعمال المضجر لأسطوانة الآلة الطابعة بمستوى أدنى من صفحات الكودكس)؟ ما هي وظائف البحث والتوجيه التي

يوفرها البرنامج؟ هل يسمح ببناء «روابط» آلية بين مختلف أقسام النص ووضع ملاحظات من نمط مختلف؟ هل يستطيع القارئ أن يضفي طابعًا شخصيًا على برنامجه القرائي؟ إنّ كثيرًا من المتغيرات الرئيسية ستؤثر بقوة كبيرة في العمليات الفكرية التي سينكبّ عليها القارئ.

تتيح الركيزة الرقمية أخيرًا أنماط قراءات (وكتابات) جديدة جماعية. فتمتد استمرارية متنوعة إذًا ما بين القراءة الشخصية لنص محدد، وتصفح شبكات رقمية واسعة تقوم فيها مجموعة أشخاص بوضع ملاحظات وإجراء زيادات وربط النصوص بعضها ببعض بواسطة روابط نصية تشعبية. وتفعّل الفكرة في النص، ويفعّل النص في القراءة (التفسير). وبامتطاء هذا التفعيل، فإن العبور إلى النص التشعبي هو عملية افتراضان، لا للعودة إلى فكر المؤلف ولكن لجعل النص الحالي شكلًا من الأشكال الممكنة للمجال النصي المتوافر والمتحرك، والذي تمكن إعادة تشكيله على مزاجنا، بل حتى ربطه وإدخاله في تركيب مدونات أخرى تشعبية وأدوات مختلفة تساعد على التفسير. وبهذا الشكل، يضاعف تشعيب النص فرص إنتاج المعنى ويغني القراءة بشكل كبير.

ها نحن قد عدنا من جديد إلى مسألة القراءة. نحن نعلم أنّ النصوص الأبجدية الأولى لم تكن تفرِقُ الكلمات. ولكن بالتدريج تم اختراع المسافات البيضاء بين الكلمات، والفواصل، والفقرات، والتقسيمات الواضحة في فصول، وجداول المحتويات، والفهارس،

وفن تصميم الصفحة، وشبكة الإحالة في الموسوعات والقواميس، والهوامش والملاحظات في أسفل الصورة... أي كل ما من شأنه تيسير القراءة واستشارة الوثائق المكتوبة. وتشكل هذه التقنيات الإضافية ما يمكن أن نسميه بـأدوات القراءة الاصطناعية بفضل مساهمتها في تطويع النصوص وهيكلتها وجعلها مترابطة.

إنّ النص التشعبي، ووسائل الإعلام التشعبية أو الوسائل الإعلامية المتعددة التفاعلية تتابع إذًا عملية قديمة لجعل القراءة اصطناعية. وإذا كانت القراءة تتمثل في انتقاء وإيجاز وبناء شبكة إحالات داخلية للنص والربط بمعطيات أخرى وإدماج الكلمات والصور في ذاكرة شخصية هي في حالة إعادة بناء مستمرة، **ففي هذه الحالة تشكل ترتيبات النصوص التشعبية حتمًا نوعًا من التجسيد والإظهار والافتراض لعمليات القراءة.** ولا نأخذ هنا بالاعتبار العمليات التقنية لرقمنة النص وعرضه فحسب، بل أيضًا النشاط الإنساني في القراءة والتفسير الذي يُدْمِج الأدوات الجديدة.

لقد رأينا سابقًا أن القراءة الاصطناعية موجودة منذ زمن طويل. فما هو الفرق إذًا بين النظام الذي استقر على صفحات الكتب والجرائد، والنظام الذي يتم ابتكاره اليوم على الركائز الرقمية؟

إن أبسط مقاربة للنص التشعبيّ، الذي لا يستبعد الأصوات ولا الصور، تتم بوصفه، على النقيض من النص الخطي، نصًّا مبنيًّا بشكل شبكة. ويتشكّل النص التشعبي من عقد (عناصر المعلومة، فقرات، وصفحات، وصور، ومقاطع موسيقية ...إلخ) ووصلات بين

هذه العقد (مراجع، وملاحظات، ومؤشرات، و«أزرار» توجه المرور من عقدة إلى أخرى).

إن قراءة موسوعة تقليدية تُعتبر من النمط النصي التشعبي، لأنها تلجأ إلى أدوات التوجيه المتمثلة في المعاجم والقواميس الوجيزة، والفهارس، والفهارس التوثيقية، والأطالس، وجداول الأرقام، وجداول المحتويات، والإحالات في نهاية المواضيع. ومع ذلك، تقدم الركيزة الرقمية شيئًا مختلفًا مهمًّا بالمقارنة مع النصوص التشعبية لما قبل حقبة المعلوماتية وهي أن البحث في الفهارس واستخدام أدوات التوجيه والمرور من عقدة إلى أخرى أمور تتم بسرعة عالية بحدود الثانية. ومن جهة أخرى، تسمح الرقمنة بجمع الأصوات والصور المتحركة والنصوص ومزجها بشكل دقيق على الوسيط نفسه. وبحسب هذه المقاربة الأولى، يمكن تعريف النص التشعبيّ إذًا بأنه مجموعة معلومات متعددة الأنماط وموضوعة ضمن شبكة تصفح سريعة و«حدسية».

وبالنسبة إلى التقنيات السابقة للقراءة على الشبكة، تدخل الرقمنة ثورة كوبرنيكية صغيرة: إذ لم يعد المتصفح هو الذي يتبع تعليمات القراءة ويتنقل فيزيائيًّا في النص التشعبي، مقلبًا الصفحات وناقلًا كتبًا ثقيلة الوزن ومتجولًا في المكتبة بخطى واسعة، ولكنها الآن نص متحرك ومتنوع الأوجه، يبدي وجوهه المتعددة ويدور وينثني وينفتح أمام القارئ بحسب الطلب. ويتم حاليًا ابتكار فن جديد في النشر والتوثيق يحاول أن يعتمد الاستثمار الأفضل لسرعة تصفح جديدة ضمن كتل معلومات نكدسها في مجلدات تصبح أضيق من يوم إلى آخر.

وبحسب مقاربة ثانية متممة، يمكن تعريف التوجه المعاصر نحو تشعيب نص الوثائق بأنه توجه نحو عدم التمييز، ونحو مزج وظائف القراءة والكتابة. وسنتطرق هنا إلى السيرورة الافتراضية بحد ذاتها، وهي التي تتسبب كالعادة بوضع الظاهرية والباطنية ضمن حلقة، والتي هي في هذه الحالة خصوصية المؤلف وغرابة القارئ بالنسبة وإلى النص. إنّ هذا العبور المستمر من الداخل إلى الخارج، كما في حلقة موبيوس، يميز القراءة التقليدية، إذ لكي يفهم القارئ، عليه أن «يعيد كتابة» النص ذهنيًا، وبالتالي الدخول ضمنه. ويتعلق العبور المستمر من الداخل إلى الخارج أيضًا بالتحرير، لأن عبء الكتابة يتمثل بإعادة قراءة الذات للتصحيح، وبالتالي، بذل الجهد لنصبح غرباء عن نصنا. فتشعيب النص إذًا يضفي الطابع الموضوعي والعمليّاتي، ويرفع إلى المستوى الجماعي هذا التحديد المتقاطع للقارئ والمؤلف.

لندرس أوّلًا الموضوع من طرف القارئ. إذا عرّفنا النص التشعبي بكونه حيّز قراءات ممكنة، ففي هذه الحالة يبدو النص كأنه قراءة خاصة للنص التشعبي. فيساهم المتصفح على هذا النحو في كتابة النص الذي «قرأه» أو على الأقل في تحريره، لأنه يحدد تنظيمه النهائي (أو ما يسمى بالترتيب في المناظرة القديمة).

وبإمكان المتصفح أن يصبح مؤلّفًا بشكل أكبر ممّا لو كان يتصفح شبكة محددة مسبقًا، وذلك بالمشاركة في هيكلة النص التشعبي وبخلق روابط جديدة. وتسجّل بعض الأنظمة مسارات القراءة وتقوي الروابط (بزيادة مرئيتها مثلًا) أو تضعفها بحسب طريقة استخدامها من مجموعة المتصفحين.

وأخيرًا، يستطيع القراء لا تغيير الروابط فحسب، ولكن أيضًا إضافة العقد أو تعديلها (النصوص، الصور ...إلخ)، ووصل مستند تشعبي بآخر لعمل مستند واحد من النصين التشعبيين المنفصلين، أو إجراء روابط نصية تشعبية بين مستندات عديدة. ونشير إلى أنّ هذه الممارسة تتطور حاليًا في الإنترنت، وبخاصة في الوِيب. إنّ كل النصوص العامة التي يمكن الوصول إليها على شبكة الإنترنت تشكل افتراضيًا في الوقت الحالي جزءًا من النص التشعبي الهائل نفسه الذي ينمو باستمرار. والمستندات التشعبية المفتوحة التي نصل إليها بالشبكة المعلوماتية هي أدوات قوية للكتابة والقراءة الجماعية.

وهكذا تتبادل الكتابة والقراءة الأدوار. إن القارئ هو الذي يشارك في هيكلة النص التشعبي وإبراز كل معانيه الممكنة. وفي المقابل، فإن الذي يفعّل مسارًا أو يظهر هذا المظهر أو ذاك من الاحتياطي الوثائقي، يساهم في الكتابة، وينهي بشكل مؤقت كتابة لا نهاية لها.

ويمكن إدماج عمليات القص واللصق والإحالات ومسارات المعاني الأصلية التي يبتكرها القارئ في بنية المدونة نفسها. وانطلاقًا من النص التشعبي، تكون كل قراءة عملية كتابة.

الفضاء السيبراني أو افتراضان الحاسوب

لن يكون عندنا سوى رؤية جزئية عن الافتراضان المعاصر للنص والقراءة إذا ما ركّزنا اهتمامنا في عملية الانتقال من الورق إلى شاشة الحاسوب فحسب. لقد أصبح الحاسوب مندمجًا كركيزة للرسائل الممكنة وانحلّ تقريبًا في الفضاء السيبراني، تلك المنطقة المضطربة

لعبور الإشارات الموجهة. وقبل أن نتناول موضوع تهجير النص، لنتحدّث في افتراضان الحاسوب.

إن المعلوماتية المعاصرة ببرمجيّاتها وتجهيزاتها، بعد أن كانت مستقطبة بـ«الآلة» ومتشظّية بالبرمجيات، كالبلقان بالأمس القريب، تقوم بتفكيك الحاسوب لمصلحة فضاء اتصالات قابل للتصفح وشفاف، محوره تدفق المعلومات.

يمكن تجميع حواسيب من علامات تجارية مختلفة اعتبارًا من مكونات متماثلة تقريبًا، كما تحتوي حواسيب من العلامة التجارية نفسها على قطع من منشأ مختلف جدًّا. ومن جهة أخرى، يمكن أن توجد مكونات الأدوات المعلوماتية (الحسّاسات، والذواكر، والمعالجات ...إلـخ) خارج الحواسيب نفسها: في البطاقات الذكية، والموزعات الآلية، والإنسان الآليّ، والمحركات، والأجهزة الكهربائية المنزلية، وعقدات شبكات الاتصالات، وآلات النسخ، وأجهزة الفاكس، وكاميرات الفيديو، والهاتف، والمذياع، والتلفاز، وفي كلّ مكان تتم فيه المعالجة التلقائية للمعلومات الرقمية. وأخيرًا وبشكل خاص، يمكن حاسوبًا موصولًا بالفضاء السيبراني أن يستعين بقدرات الذاكرة والحساب لحواسيب أخرى في الشبكة (والتي هي نفسها تقوم بالشيء ذاته)، وكذلك مختلف أجهزة الاستشعار عن بعد، وتلك العارضة للمعلومات. إنّ كل وظائف المعلوماتية (الاستشعار، والرقمنة، والحفظ، والمعالجة، والعرض) قابلة للتوزيع وتوزَّع أكثر فأكثر. ولم يعد الحاسوب هو المركز، ولكنه أصبح طرفًا أو مُزقةً من

النسيج، ومكوّنًا غير مكتمل لشبكة الحوسبة العالمية. وتؤثر وظائفها المبعثرة في كل عنصر من الفضاء التقاني. ويمكننا القول بأنه لم يعد هناك سوى حاسوب واحد، وركيزة واحدة للنص، ولكن أصبح من المستحيل رسم حدوده وتحديد معالمه. إنه حاسوب مركزه كائنٌ في كل مكان وحدوده غير موجودة بمكان. إنه حاسوب ذو نص تشعبي مبعثر، وحيّ، يتكاثر، وهو غير مكتمل، وافتراضي، وهو حاسوب بلبلة واختلاط: إنه الفضاء السيبراني نفسه.

تهجير النص

يعمل ملايين الأشخاص والمؤسسات في العالم على بناء النص التشعبي الهائل للوِيب العالمي وترتيبه. وفي الوِيب، كما في أي مستند تشعبي، يجب أن نميِّز من ناحية المفهوم بين نمطين مختلفين من الذاكرة. هناك من جهة احتياطي النصوص أو الوثائق المتعدد الصيغ والمعطيات، ومخزون بلا شكل لكن مع وجود بعض العلامات لكي يُحدَّد عنوان لمكوّناته. وهناك من جهة أخرى مجموعة من البنى والمسارات والتوجيهات بالأسهم أو شبكات المؤشرات التي هي بمثابة تنظيمات خاصة، انتقائية ومشخصنة للمخزون. وكل فرد، وكل تنظيم مدعو إلى أن يضيف إلى المخزون، لا بل أن يقترح أيضًا على مستخدمي الفضاء السيبراني الآخرين وجهة نظر في كامل الموضوع وبنية مشخصنةً. وتتجلّى وجهات النظر الشخصية هذه بشكل خاص في الروابط نحو الخارج والمرتبطة بصفحات استقبال معروضة من الفرد أو المجموعة. في الفضاء السيبراني، حيث يمكن الوصول إلى

كلّ نقطة من أيّ نقطة أخرى، نميل أكثر فأكثر إلى استبدال صور المستندات بروابط نصية فائقة: إذ يكفي أن يتواجد النص فيزيائيًا مرة واحدة على ذاكرة حاسوب موصول بالشبكة لكي يؤخذ في آلاف بل ملايين المسارات أو العلوم الدلالية المختلفة بفضل المؤشرات. واعتبارًا من صفحات الاستقبال والمستندات التشعبية على الإنترنت نستطيع تتبع مختلف العوالم الشخصية.

لم يعد هناك في النظام الرقمي تمييز بين الأصلي والنسخة منذ فترة طويلة. ويقوم الفضاء السيبراني حاليًا بخلط مفاهيم الوحدة والهوية والتموضع.

وتستطيع الروابط أن تحيل إلى عناوين لا تحتوي على نص محدد، وإنّما على معطيات يتم تحديثها في الوقت الحقيقي: مثل النتائج الإحصائية، والأوضاع السياسية، وصور من العالم منقولة عبر الأقمار الصناعية. وهكذا، ومثل نهر هيراقليطس (Héraclite)(*)، لا يكون النص التشعبي هو نفسه مرتين. وبتغذيته من خلال حسّاسات، يفتح نافذة على التدفق الكوني وعلى عدم الاستقرار الاجتماعي.

(*) نهر هيراقليطس: أورد الكاتب هذه العبارة مُحيلًا ضمنيًا إلى أصلها، وهو قول الفيلسوف الإغريقيّ هيراقليطس «إنّك لا تنزل النهر مرّتين»، كناية عن عبارة شهيرة جاءت على لسان هذا الفيلسوف عندما نظر إلى النهر فوجد مياهه تجري، ورأى أنّ النهر الذي خاض في مائه منذ وقت قليل قد تغيّر وتبدل في ثوانٍ وأصبح نهرًا آخر. ومعنى كنايته أنّ كل شيء في حالة تبدّل وتغيّر مستمرّين... بما في ذلك نظرتنا إلى الأشياء ورؤانا وتوجّهاتنا. إنّ عدم ثبات الأشياء على حال هو سمتها الملازمة لها، وإن ثبتت، فلزمن معلوم، وبهويّة مخصوصة مستحيلة قطعًا.

لقد قامت أدوات النص التشعبي في الشبكات الرقمية بـتهجير النص، وأبـرزت نصًّا بدون حدود واضحة ولا باطنية محددة. إنّنا نقول الآن يوجد نص، كما نقول يوجد رمل أو ماء. لقد أصبح النص متحركًا، ومأخوذًا في سبل، ومنقولًا، وعرضة للتحول. إنه أقرب حتّى من حركة الفكر أو من صورتها لدينا اليوم. ومع ابتعاده عن الأفكار الثابتة التي يفترض أن تهيمن على عالم الإحساس، أصبح شبيهًا بأجواء السيرورة التي يتداخل فيها.

إنّ النص مستمر دومًا، لكن الصفحة توارت. إن هذه الصفحة أو (*pagus*) باللاتينية، ذلك المجال، وهذا الحيز المحدود ببياض الهوامش والمحروث بالسطور والمزروع من المؤلف بالأحرف والرموز؛ هذه الصفحة التي لا زالت مثقلة بصلصال بلاد الرافدين، الملتصقة دومًا بـأرض العصر الحجري الحديث، هذه الصفحة الطاعنة في القدم، تختفي ببطء تحت الفيضان المعلوماتي وتذهب رموزها المفكوكة للالتحاق بالموج الرقمي.

وتسير الأمور كما لو أن الرقمنة ترسي نوعًا من الحقل الدلالي الهائل الذي يمكن الولوج إليه من أي مكان، كما أن باستطاعة أي شخص أن يساهم في إنتاجه وثنْيِه بطرق مختلفة وإعادة النظر فيه وتعديله وإعادة ثنيه. وغنيّ عن الإشارة هنا أن الأشكال الاقتصادية والقانونية الموروثة من الفترة السابقة تعوق اليوم حركة التهجير من بلوغ مرماها.

وينطبق التحليل كذلك على الصور التي لم تعد تشكل افتراضيًّا سـوى أيقونة تشعبية، لا حـدود لها، متعددة الأوجـه، بحالة نمو

وعرضة لكل الأوهام. وأما في الموسيقى، فنقوم بعمل بنوك للتأثيرات الصوتية وقوائم لأنغام نموذجية وبرامج اصطناعية ومقاطع وترتيبات أوتوماتيكية. تشكل ألحان الفضاء السيبراني مجتمعة أنغامًا لا يمكن سماعها، أو تتحول إلى نغمات متنافرة فتنهار.

لم يعد التأويل - أي إنتاج المعنى - يحيل حصريًا إلى باطنية النية ولا إلى تراتبيات لمعانٍ باطنية، وإنّما إلى حس التملك المتفرد دومًا عند المتصفح أو المتصفحة. ويبزغ المعنى من تأثيرات الملاءمة المحلية، ويظهر فجأةً عند تقاطع مستوى رمزي مهجَّر مع استهداف الفاعلية أو اللذة. لم أعد أهتم بما كان يفكر به مؤلف مجهول بل أطلب من النص أن يجعلني أفكر هنا والآن. إنّ افتراضية النص تغذي ذكائي أثناء الفعل.

نحو انطلاقة جديدة لثقافة النص

إذا كانت القراءة تكمن في تصنيف شبكة دلالية ما وفي انتقائها وتبسيطها وبنائها ودمج الأفكار المكتسبة في ذاكرة، فإنّ التقنيات الرقمية لإنشاء النص التشعبي والتصفح تشكل حتمًا نوعًا من الافتراضان التقني أو إظهارًا لعمليات القراءة.

وبفضل الرقمنة، يشهد النص والقراءة حاليًّا انطلاقة جديدة ترافقها طفرة عميقة. ويمكننا أن نتخيل أن الكتب والصحف والمستندات الفنية والإدارية المطبوعة لن تكون غالبًا في المستقبل سوى عروض مؤقتة وجزئية لنصوص تشعبية عبر الإنترنت، غنيّة ومليئة دومًا بالحياة. واستنادًا إلى أن الكتابة الأبجدية المستخدمة

اليوم قد استقرت على ركيزة ساكنة، من المبرّر أن نتساءل إذا كان ظهور ركيزة دينامية قد يؤدّي إلى خلق أنظمة جديدة للكتابة تقوم باستغلال هذه الإمكانيات الجديدة على أحسن وجه. إن «الأيقونات» المعلوماتية وبعض ألعاب الفيديو والمحاكاة التصويرية التفاعلية التي يستخدمها العلماء تمثل الخطوات الأولى نحو كتابة رمزية دينامية مستقبلية للأفكار.

هل يؤدي تكاثر الشاشات إلى نهاية الكتابة، كما يوحي بذلك بعض المتشائمين؟ من المرجح جدًّا أن تكون هذه الفكرة خاطئة. ومن المؤكد أن النص الرقمي الانسيابي، والقابل لإعادة التشكيل بحسب الطلب، والمنظّم على نمط غير خطي والذي يسري ضمن شبكات محلية أو عالمية يكون كل مشارك فيها مؤلّفًا وناشرًا محتملًا ـ من المؤكد تمامًا أن هذا النص يختلف عن النص المطبوع التقليدي.

ولكن لا ينبغي الخلط بين النص ونمط التوزيع الأحادي المتمثل بالمطبعة، ولا مع الركيزة الساكنة المتمثلة بالورق، ولا مع بنية الرسائل الخطية والمغلقة. إن ثقافة النص مع ما تتضمن من تباين زمني في التعبير ومسافة نقدية في التفسير وإحالات كثيرة ضمن عالم دلالي متداخل النصوص، مدعوة ـ على العكس ـ إلى الانتشار الهائل في فضاء الاتصالات الجديد للشبكات الرقمية. ولا يؤدي الافتراضان إلى تدمير النص وإنّما يجعله يتطابق مع جوهره الذي أزيحت الستارة عنه فجأة. لكأنّ الافتراضان المعاصر ينجز مستقبل النص، وكأننا نخرج ممّا قبل التاريخ، وكأن مغامرة النص قد بدأت فعلًا. وكأننا أخيرًا قد اخترعنا الكتابة للتوّ.

4

افتـرضـان الاقـتـصـاد

اقتصاد التهجير

إن الاقتصاد المعاصر هو اقتصاد التهجير أو اقتصاد التحول الافتراضي. لنذكّر بأن القطاع الرئيسي للنشاط العالمي من حيث رقم الأعمال هو قطاع السياحة: رحلات، وفنادق، ومطاعم. لم تكرس الإنسانية يومًا هذا الحجم من الموارد لكي لا نكون هنا، لكي نأكل، وننام، ونعيش خارج المنزل، ونبتعد عن مسكننا. وإذا أضفنا رقم الأعمال الناجم عن السياحة نفسها إلى رقم أعمال الصناعات التي تنتج العربات (السيارات والشاحنات، والقطارات، وقطارات الأنفاق، والسفن، والطائرات ...إلخ)، ووقودًا للعربات، والبنى التحتية (طرقات، ومطارات...)، فسنجد أن نصف النشاط الاقتصادي العالمي تقريبًا هو في خدمة النقل. وتساهم التجارة والتوزيع بدورهما في نقل الرموز والأشياء. ولم تحلّ وسائط الاتصال الإلكترونية والرقمية محلّ النقل الفيزيائي، بل على العكس، إن الاتصالات والنقل كما أشرنا سابقًا هي جزء من الموجة العامة للافتراضان. إذ في قطاع التهجير الفيزيائي ينبغي حتمًا إضافة الاتصالات عن بعد، والمعلوماتية، ووسائل الإعلام التي هي قطاعات صاعدة في الاقتصاد الافتراضي. ولا ينتج التعليم والتأهيل، أسوة بالصناعات الترفيهية التي تعمل على التكوين المتباين لروح الأفراد، بالطبع سوى الافتراضي.

أما في ما يخص قطاع الصحة القوي ـ الطب والصيدلة ـ فإنه كما رأينا في فصل سابق يحوّل الجسم إلى جسم افتراضي.

حالة المال

إنّ المال، القلب النابض للاقتصاد العالمي، هو بدون شك أحد النشاطات الأكثر تميزًا لتنامي الافتراضان. وإنّ العملة، وهي أساس المال، قد ألغت التزامن بين العمل والصفقة التجارية والاستهلاك وأسندتها إلى الخارج على نطاق واسع، بينما كانت هذه الأمور تحدث في السابق في المكان نفسه والزمان نفسه. إن العملة، من حيث هي شيء افتراضيّ، أسهل للتعامل والتقاسم والاستخدام المشترك من الأشياء الملموسة، كالأرض أو الخدمات. ونجد في ابتكار العملة وتطويرها (والأدوات المالية الأكثر تعقيدًا) الملامح المميزة للافتراضان، الذي لا يقتصر على الاقتلاع من الهُنا والآن أو التهجير، وإنّما أيضًا يمرّ إلى العبور إلى عموم الناس وإلى الناس المجهولين وإلى إمكان المشاركة والتداول والاستبدال الجزئي بآلية غير شخصية في المفاوضات وموازين القوى الفردية.

ويعتبر الاعتماد المصرفي أو الكمبيالة اعترافًا بدين من عملة إلى أخرى ومن شخص إلى آخر، ويسمح عقد التأمين بالتشارك في المخاطر. ويرسي المجتمع من خلال الأسهم الملكيةَ والاستثمارَ الجماعيَّ. وكل ما سبق ابتكارات تُعتبر امتدادًا للعملة وتزيد من افتراضان الاقتصاد.

إنّ المال (المصرف، التأمين) يشكل اليوم ما بين 5 و7 في المئة من الناتج المحلّي الإجمالي للدول الصناعية [Goldfinger,1994]. وإنّ

التدفقات المالية العالمية هي أعلى من تدفقات التجارة الدولية، كما إن نمو المنتجات المشتقة داخل القطاع المالي نفسه (أنواع التأمين على المنتجات التقليدية والافتراضية بامتياز) هي أقوى من المتوسط. وبشكل عام، فإنّ الأولوية المتعاظمة للاقتصاد النقدي والضرورات المالية هي إحدى التظاهرات الصارخة والجارية للافتراضان. وبالأرقام الصريحة، فإن أكبر سوق في العالم هو السوق النقديّ نفسه أي سوق تصريف العملة الذي هو أهم من سوق السندات والأسهم.

كيف تعمل الأسواق المالية؟ تتعلق تحاليل العاملين في أسواق المال بشكل أساسي بتحاليل العاملين الآخرين، تمامًا كما هو الأمر في مجموعة يمارس كل فرد فيها علم نفس الجماهير. وتنبني «حجج» تلك التحاليل بشكل خاص على المؤشرات الاقتصادية المعطاة بالأرقام والتي تنشرها الحكومات ومؤسسات الإحصاء، وعلى الأسعار ومعدل صرف القطع الأجنبي، وقيمة الأسهم والأدوات المالية. وهذه الأسعار ومعدلات الصرف هي نفسها «نتائج» يتوصل إليها السوق بعد التفكير الجماعي الموازي والموزع. ويأخذ السوق المالي بالحسبان قطعًا معطيات «خارجية» عن آلية سير عمله (حروب، انتخابات ...إلخ)، لكنه يعمل قبل كل شيء على نمط تكراري اعتبارًا من نتائج عملياته الخاصة. بل أكثر من ذلك، إنّ كل واحدة من «معالِجاته» الأساسية تحاكي، بشكل تقريبي، عملية المجموع، كما رأينا سابقًا.

يمكننا أن نجازف بإجراء مقارنة مع الفن المعاصر في معظمه، فهو يستند في مرجعيته إلى نفسه وإلى تاريخه الخاص أكثر من أي شيء آخر: مقولات، وتهكمات، واختلافات، وأبحاث في حدود

الفن أو هويته ...إلخ. وتتركز العمليات الرئيسية في الفن المعاصر، كما في المال، على رأي الآخرين، ويكون العمل الفني بمثابة ناقل أو مؤشر أو بدّالة في الدينامية التكرارية للتقويم الجماعيّ.

وبالعودة إلى افتراضان الاقتصاد، فإن بنوك المعلومات على الإنترنت، وأنظمة الخبرة والأدوات المعلوماتية الأخرى تجعل «منطق السوق» أكثر شفافية. وتتطور المالية العالمية باتحاد وثيق مع الشبكات والتقانات الفكرية ذات الركيزة الرقمية. إنها تنحو باتجاه نوع من الذكاء الجماعي الموزع الّذي يتكافأ فيه المال والمعلومات تدريجيًّا.

ولا شك في أنّ هذا الذكاء الجماعي غير مصقول، لأنه لا يعرف سوى معيار تقويم واحد أو بالأحرى «قيمة» واحدة. ومن جهة أخرى، فإن ديناميته الإجمالية وإنْ كانت فوضوية وغير متوقعة غالبًا أو عرضة للتسرع، فهي متقاربة، بمعنى أنها (على العكس من التطور البيولوجي مثلًا) لا تبقي عدة طرق متفرقة مفتوحة في الوقت نفسه. وبإمكاننا أن نحلم بمالية أكثر ذكاء، وقادرةٍ على استقصاء عدة فرضيات تقويمية في آن واحد، ويكون خيالها خصبًا وتعرض عدة سيناريوهات مستقبلية عوض أن تستجيب بشكل رئيسي لنمط لاإرادي.

المعلومة والمعرفة: استهلاك غير متلف وتملك غير حصري

وراء قطاعات الافتراضان الصرف كالسياحة والاتصالات والمال، تعتمد مجمل النشاطات اليوم بالأساس على الثروات الاقتصادية الخاصة جدًّا، والتي تتمثّل في المعلومات والمعارف.

إنّ المعلومة والمعرفة هما حاليًا وفعليًا المصدر الرئيسي لإنتاج الثروة. وقد يقول بعضهم أن الحال كانت كذلك دومًا: فالصيّاد والفلاح والبائع والحرفي والجندي، يجب عليهم جميعًا وقطعًا اكتساب بعض المهارات والاستخبار عن بيئتهم لإتمام مهامهم. ولكن العلاقة مع المعرفة التي نختبرها منذ الحرب العالمية الثانية وبشكل أكبر منذ السبعينيات جديدة تمامًا. وإلى النصف الثاني من القرن العشرين كان الإنسان يستغل الكفاءات المكتسبة في شبابه حتى آخر يوم عمل له. والأكثر من ذلك، كان عمومًا ينقل معرفته التي لم تتغير تقريبًا إلى أطفاله أو المتدربين عنده. لقد أصبح هذا المشهد غير مألوف اليوم. فالناس ليسوا مدعوين إلى تغيير مهنتهم عدة مرات في حياتهم فحسب، ولكن أيضًا في داخل «المهنة» نفسها، تكون للمعارف دورة تجديد أقصر فأقصر (ثلاث سنوات بل أقل، في المعلوماتية مثلًا).

لقد أصبح من الصعب تحديد الكفاءات «الأساسية» في مجال ما. ويمكن تقنيات جديدة أو أشكال اجتماعية ـ اقتصادية التشكيك في أي وقت في ترتيب المعارف وأهميتها.

لقد انتقلنا إذًا من تطبيق المعارف المستقرة التي تشكل خلفية أي نشاط إلى التعلم المستمر والتصفح الدائم في علم معين يندفع الآن إلى الواجهة الأمامية. ولقد كانت المعرفة مخبأة في القعر بينما تتراءى الآن ككيان متحرك. وكانت مرتبطة بالتأمل وثابتة، وها هي الآن تصبح تيارًا يغذي العمليات الفعالة، بل أصبحت هي نفسها عمليةً. وعلاوة على ذلك، لم تعد طبقة المتخصّصين وحدها مؤهّلة

للتعلم وإنتاج المعارف ونقلها بطريقة تعاونية في حياتهم اليومية، ولكن السواد الأعظم من الناس أصبحوا مدعوين إلى ذلك أيضًا.

وتعتبر المعلومات والمعارف اليوم من بين الثروات الاقتصادية الأساسية، وهذا ما لم تكن عليه الحال من قبل. وإضافة إلى ذلك، فإن وضعها كبنية تحتية ـ نتكلم حاليًا عن بنية معلوماتية ـ كمنبع أو كشرط حاسم لكل أشكال الثروة الأخرى قد أصبح واضحًا، بينما كانت سابقًا في الظل.

وتخضع هذه الموارد الجديدة المفتاحية لقانونين معاكسين للمفاهيم وآليات التفكير الاقتصادية التقليدية: لا يؤدي استهلاكها إلى فنائها، كما أن التنازل عنها لا يؤدي إلى ضياعها. إن الذي يقدم كيسًا من القمح أو سيارة أو ساعة عمل أو مبلغًا من المال يكون قد خسر شيئًا يربحه الآخر. وسواء قمنا بإنتاج الطحين أو قدنا سيارة أو قمنا باستغلال عمل عامل أو أنفقنا المال فإن ما يحدث هو عملية غير قابلة للعكس: اهتراء، وإنفاق، وتحول، واستهلاك.

إنّ الاقتصاد يستند بشكل واسع إلى مسلَّمة ندرة الثروات، التي تستند بدورها إلى الطابع الإتلافيّ للاستهلاك وإلى الطبيعة الحصرية أو المانعة لعملية التنازل أو الاقتناء. وأكرر هنا للمرة الثانية أنني لو نقلت إليكم معلومة فإنني لا أفقدها، وإذا استخدمتها فإنني لا أتلفها. على اعتبار أن المعلومة والمعرفة هما مصدر أشكال الثروة الأخرى وتعتبران من بين الثروات الاقتصادية الرئيسية في عصرنا. وباستطاعتنا أن نتوقع بزوغ اقتصاد الوفرة الذي تكون المفاهيم فيه مختلفة بشكل

كبير عن سير الاقتصاد التقليدي. ونحن نعيش في الواقع حاليًا في ظل هذا النظام بطريقة ما، لكننا لا نزال نستعين بأدوات اقتصاد الندرة التي لم تعد ملائمة [Goldfinger, 1994].

إلغاء الطابع المادي أو الافتراضان: ما هي المعلومة؟

ما هو الشيء الموجود في طبيعة المعلومة والمعرفة والذي يمنحهما خواصّ اقتصادية معينة؟ إنّ أول جواب يتبادر إلى الذهن هو: ثروات «لامادية». لنتفحص هذا الاقتراح بعناية. إنه يفترض أوّلًا ميتافيزيقيّة المادة، وأنه توجد هنا أشياء «مادية» وأشياء «لامادية». ولكن حتى الثروات التي تعتبر مادية تستمد قيمتها من أشكالها وبناها وخواصها الظرفية، أي من بعدها «اللامادي» في نهاية المطاف. وبشكل دقيق، فإننا لا نجد في السلع المادية البحتة سوى المواد الأولية. ولكن على العكس، لا يمكننا فصل المعلومات عن أيّ ركيزة فيزيائية، وإلّا تعرضت للتلف. صواب قولنا إنّه يتسنّى نسخها ونقلها وزيادتها بسهولة، ولكن ما إن ينهار مكان تسجيل المعلومة «المادي» حتى تختفي المعلومة من دون عودة. في ما يخص المعرفة التي يمتلكها الإنسان فهي أيضًا مرتبطة أكثر بـ«المادة» لأنها تفترض جسدًا حيًا وكيلوغرامين على الأقل من المادة الرمادية الرطبة بوضع تشغيلي جيد. ولكن النقطة الأساسية هنا هي أن تتمكن المعرفة من العبور من دماغ إلى آخر، وأن لا تكون مرتبطة بالضرورة بالشخص نفسه. وبشكل دقيق، فإن المعرفة والمعلومة ليستا «لاماديتين» ولكنّهما مهجّران؛ وباستطاعتهما التنقل وليستا مرتبطتين حصريًا بركيزة متميزة. ولكن المعلومة والمعرفة ليستا «مادتين»! إن البديل

للمادي وغير المادي لا ينطبق إلّا على المواد والأشياء، أمّا المعلومة والمعرفة فتندرجان في نطاق الحدث أو السيرورة.

وتعتبر المعلومة ـ بحسب نظرية الاتصال الرياضية ـ حدثًا يؤدي إلى تراجع الشك في موضوع معين. لا نأخذ بالاعتبار في هذه النظرية سوى بعالم الإشارات. ويرتبط حدوث كل إشارة في رسالة ما بمعلومة قابلة للقياس. فمثلًا، ظهور كل حرف من هذا النص يعطي معلومة وبخاصة أنها غير مرجحة، إلّا أن الظهور ليس شيئًا. إنه ليس ماديًا كالتفاحة وليس غير ماديّ كالروح الأبدية. وبالمقابل، ليس الشيء محتملًا ولا غير محتمل. بل الحدث فقط، أو «الواقعة»، يمكن أن يكون مرتبطًا باحتمال، وبالتالي يكون إخباريًا، وفيما لو أن هذا الشيء مثلًا موجود هنا الآن أو غير موجود. إنّنا نشعر حقًّا بشكل حدسي بأن المعلومة مرتبطة باحتمال شخصي للحدوث أو الظهور: الحدث المتوقع تمامًا لا يعلمنا شيئًا، أمّا الحدث المفاجئ فيعطي معلومة حقًّا.

لندرس الآن بعناية طبيعة المعلومة، ولنفترض أنه جرت في بلد ما عملية انتخابية، وهذه العملية تمت في مكان ما وفي وقت معين. وعلى هذا الأساس، لا يمكن فصل هذا الحدث من «الهُنا والآن» الخاص. نقول في هذه المناسبة إن الانتخاب قد «حصل»، وإن الأمر يتعلق بحدث فعلي. وحين تقوم وكالات الأنباء في التقديرات الأولية بالإعلان عنه والتعليق عليه، فإنها لا تنشر الحدث نفسه ولكنها تنشر رسالة تتعلق به. يمكن أن نقول إذًا، إذا كان الحدث حاليًا، فإن صنع رسائل بصدده ونشرها يشكلان افتراضًا للحدث مزوّدًا بكل الخواص التي ربطناها حتى الآن بالتحول إلى

هذا الافتراضان أي الانفصال من الهُنا والآن الخاص، والعبور إلى الجمهور، وبشكل خاص تباين المنشأ. وفي الحقيقة، الرسائل التي تجعل الحدث افتراضيًا هي في الوقت نفسه امتداد له، وتشارك في إحداثه وفي تحديده الذي لم يكتمل وتصبح جزءًا منه. وبفضل الصحافة وتعليقاتها، تنتشر نتيجة الانتخاب بهذه الطريقة أو تلك على الساحة المالية لبلد أجنبي. وفي يوم ما، في بورصة عاصمة اقتصادية، تتم صفقاتٍ فريدة: يفعَّل الحدث باستمرار في أزمنة وأمكنة خاصة. ولكن هـذا التفعيل نفسه يأخذ شكل إنتاج رسائل ومعلومات وافتراضانات مصغَّرة. وها هنا نجد موضوع حلقة موبيوس: الرسالة حول الحدث هي في الوقت نفسه مقطع من الحدث لا ينفصم عنه. والخريطة (الرسالة) هي جزء من الإقليم (الحدث)، ويتألف الإقليم بشكل كبير من عملية جمع غير محددة، ومن مفصلية دينامية، ومن شبكة خرائط بحالة توسع. أي أن كل ما يندرج في نظام الحدث يتعلق بدينامية التفعيل (توطين، وإنشاء مثيل هنا والآن، حل خاص) ودينامية الافتراضان (التهجير، انفكاك، وتقاسم، ورفع إلى مستوى الإشكالية). تتبادل الأحداث والمعلومات حول الأحداث هوياتها ووظائفها في كل مرحلة من جدلية العمليات ذات المعنى.

لماذا لا يكون استهلاك المعلومة متلفًا ولا تكون حيازتها حصرية؟ لأن المعلومة افتراضية. كما أشرنا سابقًا بإسهاب، فإن إحدى السمات المميزة للافتراضان هي انفكاكه من اللحظة والمكان الراهنين الخاصين ولهذا السبب باستطاعتي منح بضاعة افتراضية، في اللامكان بالضرورة، من دون خسارتها. لنتذكر من جهة أخرى أنه من الممكن

تشبيه الافتراضي بالمسألة، وتشبيه الفعلي بالحل. فالتفعيل إذًا ليس إتلافًا ولكنّه بالعكس إنتاج ابتكاري وعمل خلاّق. فحين أستخدم المعلومة، أي حين أفسرها وأربطها بمعلومات أخرى لإضفاء معنى، أو حين أستخدمها لاتخاذ قرار، فإنّني أفعّلها. فأنا بالتالي أنجز عملًا خلّاقًا ومنتجًا. إن المعرفة بدورها هي ثمرة التعلم، أي ثمرة افتراضية التجربة الفورية. وبالاتجاه المعاكس، يمكن المعرفة أن تنطبق أو تتفعل في حالات مختلفة عن حالات التعلم الأولية. إنّ كل تجميع فعلي لمعرفة ما هو بمثابة حل ابتكاري لمسألة أو عملية خلاقة صغيرة.

جدلية الواقعيّ والممكن

لنعد الآن إلى أكياس القمح وسياراتنا. لا يتعلق إنتاجها واستهلاكها بجدلية التفعيل والافتراضان بقدر ما يتعلّق بكونها بديلًا للممكن والواقعيّ، وتجب محاولة فهم نمط الدينامية التي يصنف فيها استخدامها، بدل أن نبقى مسحورين بطبيعتها «المادية». إن البضائع التي يكون استهلاكها متلفًا، وامتلاكها حصريًّا، هي خزانات احتمالات، خزانات «للإمكانيات». إن استهلاكها (تناول القمح، قيادة السيارة) هو بمثابة تحقيق، أي خيار حصري وغير قابل للعودة من بين الممكنات، أي «انخفاض كموني». ولا يتيح التحقيق المجال لبعض الاحتمالات إلّا على حساب الاحتمالات الأخرى. والممكنات هي مرشحة وليست حقلًا إشكاليًّا. والتحقيق هو انتخاب أو انتقاء أكثر من كونه حلًّا ابتكاريًّا لمسألة. إنّ البضاعة الافتراضيّة تثير مشكلة، وتفتح مجالًا تفسيريًّا، مجال حل أو تفعيل، بينما لا تتوافق حزمة الممكنات إلّا مع تحقيق حصري. كشيء قابل

للتحقيق، لا يمكن البضاعة القابلة للتلف والحصرية التواجد هنا وهناك في آن واحد، وأن تكون منفكة من هذا المكان وهذه اللحظة. إنها (البضاعة) تخضع لقانون إقصاء الآخر: إما... أو... ولولا ذلك لتحققت بطريقتين مختلفتين، في مكانين وزمانين مختلفين، وهذا مستحيل بحكم التعريف. إن احتياطيات الممكنات، أي البضائع التي يشكل استهلاكها تحقيقًا، لا يمكن فصلها عن ركيزتها الفيزيائية.

لتجنب أي سوء فهم، نشير فورًا إلى أن الأمر يتعلق هنا بتمييزات في المفاهيم وليس بمبدأ تصنيف حصري. فمثلًا يمتلك عمل فني في الوقت نفسه مظاهر الإمكان والافتراض. ومن حيث كون اللوحة مصدر أبهة وهالة، أو من حيث كونها قيمة تجارية، فإنها تُعتبر احتياطيًّا لممكنات (اللوحة «الأصلية») لا يمكن تحقيقها (معرض، مبيع) هنا وهناك، في الوقت نفسه. لكن من ناحية كونها تحمل صورة يجب تفسيرها وتقليدًا يجب اتباعه أو نقده، وكحدث في التاريخ الثقافي، تعتبر اللوحة غرضًا افتراضيًّا له عدة تفعيلات تتمثل في اللوحة الأصلية، والنسخ، والمطبوعات، والصور، وإعادة النشر والرقمنة والوضع على شبكة تفاعلية. وكل أثر ذهني أو ثقافي يتم عن طريق إحدى هذه التحيينات يعتبر بدوره تحيينًا للوحة.

العمل

في مؤسسة العمل التقليدية، كما تبلورت في القرن التاسع عشر، يبيع العامل قوة عمله ويتلقى بالمقابل أجرًا. إن قوة العمل هي عمل ممكن، طاقة كامنة محددة مسبقًا بنظام الإنتاج البيروقراطي. إنها طاقة كامنة لأن ساعة العمل الممنوحة هي ساعة ضائعة بشكل نهائي.

والعمل المأجور التقليدي هو بمثابة انخفاض للطاقة الكامنة، أي تحقيق، ولهذا يمكن قياسه بالساعة.

وفي المقابل، لا يميل العامل المعاصر إلى بيع قوة عمله، وإنّما يبيع كفاءته، أو بالأحرى قدرة يعتني بها باستمرار ويحسّنها لكي يتعلم ويبتكر. وهي قدرة يمكن أن تتفعل بطريقة غير متوقعة في ظروف متغيرة. وبعد قوة العمل المأجورة التقليدية (الطاقة الكامنة)، تأتي في الدرجة الثانية إذًا الكفاءة والمهارات الحالية والمستقبلية التي تدخل ضمن نطاق الافتراضي. وككلّ أي شيء افتراضي، وعلى العكس من الطاقة الكامنة، فإن الكفاءة لا تُستهلك حين نستخدمها، بل على العكس تبقى. لكن المشكلة هنا هي أن قياس تفعيل الكفاءة، أي ظهور ميزة في ظرف حي، يكون أصعب بكثير من قياس تحقيق قوة العمل.

وفي الحقيقة، لم يكن العمل يومًا مجرد عملية تنفيذ. إذا تم اعتباره انخفاضًا في الطاقة الكامنة، أو عملية تحقيق، فذلك لم يتمّ إلّا نتيجة العنف الاجتماعي الذي كان ينكر طابعه التفعيلي الخلاق (في الوقت الذي كان يستخدمه).

ومن المؤكد أن الساعة التقليدية لم تعد الوحدة الملائمة لقياس العمل. وعدم ملاءمتها كانت واضحة بشكل صارخ منذ فترة طويلة في ما يخص نشاط الفنانين والمثقفين، وتشمل حاليًّا مجمل النشاطات تدريجيًّا. ويساعدنا ذلك في فهم كيف أن تخفيض مدة العمل لا يمكن أن يكون حلًّا على المدى الطويل لمسألة البطالة: لأنه يبقي على مفهوم للعمل ولتنظيم الإنتاج، مع نظام للقياس، رهين تطور

الاقتصاد والمجتمع. ولا يمكن قياس عمل بشكل صحيح ـ وبالتالي دفع أجرته ـ استنادًا إلى ساعة العمل إلّا إذا تعلق الأمر بقوة عمل كامنة تتحقق (محددة مسبقًا مع تنفيذ بحث). إنّ المعرفة التي تتم العناية بها، والكفاءة الافتراضية التي تتفعّل هما بمثابة حلّ لمسألة إبداعية في وضع جديد. كيف نقوّم احتياطي الذكاء؟ ليس بالشهادة على أي حال. وكيف نقيس النوعية في ظرف معين؟ بشيء آخر غير الساعة. إنّ الافتراضان يساعدنا في مجال العمل كما في غيره من المجالات، في العبور من اقتصاد المواد إلى اقتصاد الحوادث. متى ستتبنى المؤسسات والعقليات المفاهيم المناسبة؟ وكيف يمكننا تنفيذ أنظمة القياس التي ترافق هذا التحول؟

يدفع نظام الأجر أجر الكامن، بينما تكافئ عقود العمل الجديدة الفعلي. وفي اقتصاد المستقبل، ستعترف الشركات الرابحة وتحافظ على أولوية الافتراضي وحامليه الأحياء. وهناك في الواقع طريقتان استثماريتان لزيادة فعالية العمل، وهما: إما تشييء قوة العمل بالأتمتة(*)، أو افتراضان الكفاءات بأجهزة تزيد من الذكاء الجماعي. وفي الحالة الأولى، يكون حكمنا مستندًا إلى الاستبدال، أي أن الإنسان غير المؤهل يتم استبداله بالآلة. وفي الحالة الثانية، وهي حالة التحول الافتراضي وعلى النقيض ممّا سبق، يستند مفهومنا حول زيادة الفعالية إلى التطوّر المشترك (إنسان ـ آلة) وإلى إغناء النشاطات وإلى مزاوجات نوعية بين الذكاءات الفردية والذاكرة الدينامية لفرق العمل.

(*) الأتمتة: معادل عربيّ حديث لعبارة (Automatisation)، وهو من المصطلحات المُعرَّبة.

يترافق غالبًا موضوع «الطرق السريعة للمعلومات» في الخطابات السياسية، مع التذكير بـ«الأسواق الجديدة» التي يفترض أنّها تعيد دفع النمو وتوليد فرص العمل. ويكمن الخطأ هنا في التركيز على المنتجات الجديدة والخدمات الجديدة والوظائف الجديدة، أي على مقاربة كمية (منتجات أكثر ووظائف إضافية)، من دون الانتباه إلى أن المفاهيم التقليدية للسوق والعمل هي بصدد التحول. صواب قولنا إن الفضاء السيراني يفتح سوقًا جديدة، ولكن الأمر لا يتعلق بموجة استهلاكية قادمة، بل ببزوغ فضاء تجاري مختلف نوعيًّا، تتبدل فيه أدوار المستهلكين والمنتجين والوسطاء بشكل كبير.

ولا تعرف السوق على الإنترنت المسافات الجغرافية. فكل نقاطها هي مبدئيًّا بدرجة «القرب» نفسها من المشتري المحتمل (الشراء عن بعد). يتم فيه التقاط الاستهلاك والطلب وتتبعهما بأدق تفاصيلهما. ومن جهة أخرى، تتكاثر خدمات التوجيه وإظهار العروض. وبالمحصلة، فإنّ السوق السيراني هو أكثر شفافية من السوق التقليدي. ومن المفترض مبدئيًا أن تعطي هذه الشفافية الأفضلية للمستهلكين وصغار المنتجين وتسرّع تهجير الاقتصاد.

وتزداد باستمرار استشارة قواعد المعلومات الطبية والقانونية على الإنترنت من غير المتخصّصين. وبذلك يستطيع الأفراد التشكيك في تشخيص أو رأي قدمه إنسان محترف «قريب جغرافيًّا»، بل الولوج مباشرة إلى المعلومة ذات الصلة عند أفضل الاختصاصيّين العالميين

بواسطة قواعد المعلومات وأنظمة الخبرة أو الوسائط التشعبية التي صممت لكي تتم استشارتها من الجمهور الواسع.

وعلى اعتبار أن المنتجين الأوليين والزبائن يستطيعون التواصل مباشرة بعضهم مع بعض، فهناك احتمال أن تبدو طبقة كاملة من المهنيين وكأنهم وسطاء متطفلون على المعلومة (من صحفيين، ناشرين، مدرسين، أطباء، محامين، إطارات متوسطة) أو الصفقة (من تجار، مصرفيين، مختلف عملاء المال) وأن تصبح أدوارهم الاعتيادية مهددة. ونسمي هذه الظاهرة «إزالة الوساطة». ولا يمكن المؤسسات والمهن التي تضعف بسبب إزالة الوساطة وازدياد الشفافية أن تبقى وتزدهر في الفضاء السيبراني إلّا إذا نقلت كفاءاتها إلى تنظيم الذكاء الجماعي والمساعدة على التصفح.

إن ازدياد شفافية سوق يزداد تمايزًا وشخصنة يتيح للمنتجين الالتحام بالتطورات وتنوع الطلب في الزمن الحقيقي. بل يمكن أن نتخيل حتى المزاوجة في الوقت المناسب بين شبكات «التسويق الراجع» (rétromarketing) والمعامل المرنة، وتكون قيادة الإنتاج تقريبًا بيد المستهلكين [De Rosnay, 1995].

إنّ كل فعل قابل للتسجيل يخلق معلومة بشكل حقيقي أو افتراضي، أي أنه يخلق الثروة في اقتصاد المعلومة. فالفضاء السيبراني هو بامتياز الوسط الذي يمكن فيه تسجيل الأفعال وتحويلها معطيات قابلة للاستثمار. ولهذا السبب، فإن مستهلك المعلومة أو الصفقة أو أجهزة الاتصال لا يكف في الوقت نفسه عن إنتاج معلومة مليئة افتراضيًا

بالقيمة. ولا يصبح المستهلك مشاركًا في إنتاج المعلومة التي يستهلكها فحسب، بل يصبح أيضًا المنتج التعاوني» للعوالم الافتراضية» التي يتطور فيها، ومندوبًا لجعل السوق مرئيًّا للذين يستفيدون من آثار عمله في الفضاء السيبراني. إن المنتجات والخدمات الأكثر قيمة في السوق الجديد تكون تفاعلية، أي بعبارات اقتصادية: ينتقل إنتاج القيمة المضافة إلى طرف «المستهلك»، أو أنه يجب استبدال مفهوم الاستهلاك بمفهوم الإنتاج المشترك للسلع أو الخدمات التفاعلية. وكما أن افتراضان النصّ يؤدّي إلى عدم التميز المتنامي بين دَوْرَي القارئ والمؤلّف، فإن افتراضان السوق يسبّب مزج الاستهلاك بالإنتاج.

إن المستخدم النهائي المجهز بحاسوب ومودم وبرمجيات لترشيح المعطيات واستثمارها، والمرتبط بمستخدمين آخرين من خلال شبكات تبادل تعاونية لخدمات المعلومات شبه المجانية، أصبح مجهّزًا تدريجيًّا بشكل أفضل لصقل المعلومة. أمّا «المنتج» العادي (مدرّس، ناشر، صحفي، منتج برامج تلفزيونية) فإنّه يناضل لكي لا يُدفع به إلى مجرد دور مَن يؤمن المادة الأولية. هذا هو سبب المعركة التي يخوضها «منتجو المحتويات» لإرساء الدور الذي كانوا يشغلونه في نظام النشر الأحادي للوسائط الإعلامية، أو في الشكل الجامد للمؤسسات التراتبية قدر إمكانهم في الفضاء التفاعلي الجديد. ولكن من جانب العرض، فإن البيئة الاقتصادية الجديدة ملائمة أكثر لمورّدي الفضاءات ولمهندسي المجتمعات الافتراضية ولبائعي أدوات الصفقة التجارية والتصفح من الموزعين التقليديين للمحتويات.

في ما يخص الاستفادة الاقتصادية من المحتويات المعنية، فإن الطرق المعتادة لإضفاء القيمة على ملكية المعلومة (شراء ركيزة فيزيائية للمعلومة أو دفع حقوق المؤلفين التقليدية) هي أقل فأقل تكيّفًا مع الطابع الانسيابي والافتراضي للرسائل. وحين نتخلى تمامًا عن أيّ ادعاء لملكية البرامج والمعلومات، كما يقترح ذلك بعض الناشطين على الشبكة، فإننا قد نعود إلى ما قبل اختراع حق المؤلف وبراءة الاختراع، أي إلى الفترة التي كان يمكن فيها حجب الآراء التي اشتغل عليها المفكرون قبل أن تحتكرها القوى الاقتصادية أو السياسية وتتملّكها بدون مقابل. ولكن في عهد اقتصاد المعلومة والمعرفة، عوض أن نتخلّى عن حقوق الملكية على أشكال الثروات البرمجية كافة، ما يشكل نهبًا مخجلًا للمنتجين الأساسيين، أي البروليتاريين الجدد المتمثلين بالعمال الفكريين، يبدو أننا نتوجه بالأحرى نحو التكلّف في حقوق المؤلف. ولكنْ بسير هذا التحسين في اتجاهين هما: الانتقال من حق إقليمي إلى حق الدفق، ومن قيمة التبادل إلى قيمة الاستخدام.

إنّنا إذا أردنا اليوم استخدام صورة ما في خدمة متعددة الوسائط على الإنترنت، فإنّه يجب علينا تسديد الحقوق إلى مالك الصورة قبل أي شيء. وتعتبر الصورة بمثابة قطعة أرض صغيرة جدًّا. ومن غير الوارد استخدامها قبل شراء الأرض أو استئجارها مسبقًا. وهذا القيد يعوق بشكل كبير التحديث الاقتصادي والثقافي في الفضاء السيبراني. ولا يملك المبادر الصغير بكل بساطة الإمكانات لدفع الحقوق، وفي هذه الحالة لا يتقاضى المالك شيئًا. يرى المؤلف فكرته محصورة في

حلقة ضيقة ويحرم متصفح الإنترنت من الصورة. إذًا، لا يكمن الحل في إلغاء حقوق المؤلف، ولكن في استبداله بأنظمة احتساب مستمرّ لاستهلاك المعلومة مِن المستخدم النهائي. فيمكن مثلًا أن يتحقق التقاط المعلومة حول الاستخدام في لحظة فك تشفير الرسالة. وبهذه الطريقة، لا يلحق الضرر بالمالك ويكون باستطاعة مورّد الخدمة إظهار الصورة (مثلًا) من دون أن يكون من الواجب عليه مسبقًا دفع مبلغ من المال لا يملكه غالبًا. وبهذا الشكل، ندفع ثمن المعلومة بالطريقة نفسها التي ندفع بها ثمن الماء والكهرباء، بالاستناد إلى الاستهلاك. ولكن مع اختلاف كبير، لأن الأمر كما لو أن كل نقطة ماء تتضمن عدادها الصغير الخاص. وهكذا يمكن الصورة أن تنسخ وتستخدم وتنشر بحسب رغبتنا بلا أي تقييد. ونزاوج هنا تلقائيًّا مع الصورة التي أصبحت سيالة ومتواجدة في كل مكان، البرنامجَ الصغير الذي يسجل فك الشفرة ويطلق تلقائيًّا إرسالًا صغيرًا لحساب المستهلك ودخلًا صغيرًا لحساب الناشر أو المالك.

ويمكن تحسين هذا القياس لتيارات الاستهلاك بما يتسنّى تسميته مؤقتًا بدفع «قيمة الاستخدام». فمثلًا، في الشبكة الأميركية أميكس (AMIX)، تدفع قيمة المعلومة المبيعة بحسب تاريخ تحديثها والطلب الذي يأتي عليها. وأكثر من كونه مخزن معلومات يكون فيه السعر محددًا من البائع، تعمل أميكس مثل البورصة، حيث يساهم الطلب في الوقت الحقيقي في تحديد السعر [Goldfinger, 1994]. وتعمل خدمات كثيرة متوافرة في الفضاء السيبراني بهذه الطريقة، وتقوم بتسجيل الاستخدامات والتصفحات والتقويمات الفردية لكي

يُرسل إلى المستخدمين تقويم تعاوني أو مساعدة في التوجيه بحسب الطلب. لنذكر مثلًا على الوِيب، فيش راب (Fish-Wrap) التي تخصّ المستندات، ورينغو++ (Ringo++) المختصّة في المواضيع الموسيقية، أو آيديا فيوتشرز (Idea Futures) التي تنظم نوعًا من سوق الأفكار العلمية والتقانية. لم يكن لتلك الخدمات مع ذلك في عام 1995 ترجمة نقدية مباشرة. وتشكل أيضًا أشجار المعارف (Les arbres de connaissances®) [Authier, Lévy, 1992]، مع برنامجها جينكو (Gingo®)[2]، تدبيرًا لقياس قيمة استخدام الكفاءات (أو المستندات أو أي شكل من أشكال المعلومة)، يختلف بحسب الظروف والأوقات. ويتضمن جينكو نظامًا كاملًا لتحديد قيمة الاستخدام بواسطة عملة خاصة تدعى سول (SOL standard open learning، «التعلم المفتوح المعياري».

لقد ذكرنا الانتقال من الملكية الأرضية الجامدة إلى دفع أجرة تقلبات التهجير وتحول اقتصاد قيمة التبادل إلى اقتصاد قيمة الاستخدام. وتتعلق هذه الصيغ في الواقع بتعبيرات مجازية أكثر من كونها تصويرًا ذا مفهوم شديد الدقة. وبشكل دقيق، حين أشتري كتابًا أو قرصًا فإنني أدفع شيئًا حقيقيًا، إنني أدفع قيمة الركيزة الفيزيائية للمعلومة. والكتاب الذي لا أقرؤه يكلفني قيمة الكتاب نفسه الذي أقرؤه. إنّ كمية الكتب محدودة: الكتاب الموجود في مكتبتي غير موجود في مكتبتك. لا نزال هنا ضمن مجال الموارد

(2) (Les arbres de connaissances®) و (Gingo®) هي علامتان مسجلتان لشركة تريفيوم (TriVium®).

النادرة. وحين أشتري حقوقًا، فأنا لا أدفع قيمة شيء حقيقي ولكن قيمة شيء كامن، وهو إمكان تحقيق المعلومة أو نسخها بحسب رغبتي. إنّ السوق الجديد على الإنترنت، أي السوق السيبراني، يحتاج إلى وسائل جديدة لمعالجة جدلية الافتراضي والحالي. ولم تعد أنظمة قياس الحقيقي والكامن وتقويمها ملائمة. ولا تكون المعلومة التي تنساب في الفضاء السيبراني قبل قراءتها كامنة بل افتراضية، على اعتبار أنها تستطيع أخذ معانٍ مختلفة وغير متوقعة بحسب اندراجها في هذا المستند التشعبي أو ذاك. هي افتراضية، لأن الهدف منها ليس التحقيق (نسخة، طباعة ...إلخ) وإنّما التفعيل والقراءة، أي المعنى الذي تستطيع أخذه في السياق، هو معنى لا يمكن عزله عن المشاركة الإرادية لكائن حي واعٍ واحد على الأقل. وهي افتراضية، لأن نشرها ونسخها لا يكلفانً شيئًا تقريبًا سوى الكلفة العامة لصيانة الفضاء السيبراني. وهي افتراضية، لأنني أستطيع أن أعطي مستندًا من دون أن أفقده، وأعيد استخدام أجزاء منه بدون أن أتلف المستند الرئيسي. ففي الفضاء السيبراني، يصبح المستند غير ملموس وافتراضيًا على قدم وساق مع المعلومات والأفكار نفسها.

ويبدو أنّ الحل الذي يتراءى لمسألة اقتصاد الافتراضي والفعلي هو التالي: البضاعة الافتراضية تصبح مدرجة في القيود الحسابية، ومرصودة ومقدمة ولكن بشكل مجاني وهي حرة تمامًا في الانتقال بلا عوائق وحرة بالاختلاط ببضائع افتراضية أخرى. وفي المقابل، يترتب على كل تفعيل عملية تسديد. ويرتبط سعر التفعيل بالظرف

الراهن، ويتبع البيئة واللحظة. ويمكن أن يتمّ تثبيت هذه القيمة بشكل تعاوني مِن مجموعات المستهلكين في أسواق حرة أو في بورصات المعلومة والأفكار. فيرتبط شكل الاقتصاد الجديد إذًا بشكل واسع بأنظمة تحديد الافتراضي وقياس الفعلي التي سيتم ابتكارها في السنوات المقبلة.

اقتصاد الافتراضي والذكاء الجماعي

إذا أخذنا بالاعتبار الاقتصاد الجديد المتعلق بالافتراضي والحدثي، فليست مفاهيم الإنتاج والاستهلاك (المرتبطة إلى حد كبير بنظام الانتقاء الحصري للمزدوجة «حقيقي ـ ممكن») الأكثر ملاءمة دومًا لفهم السيرورة الجارية. إنّ الحرب ليست مادية ولا غير مادية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحب والاختراع والتعلم. الزيادات، والانخفاضات، وإعادات التنظيم، والولادات، والاختفاءات: يحدث شيء ما. أين؟ لمصلحة من؟ يُخيَّل إلينا أنها عمليات ذهنية، ومشاعر، وصراعات، ودفعات حماس أو نسيان ضمن آلة مفكرة هجينة هي في الوقت نفسه عالمية، وإنسانية وتقنية.

ربما ينبغي أن نعتبر عمليات الاقتصاد الافتراضي كأنها أحداث تجري داخل نوع من النفسانية الاجتماعية العُظمى في موضوع يخص ذكاءً اجتماعيًا في طور الولادة. سنتناول بالتفصيل لاحقًا موضوع الذكاء الجماعي هذا، لكن بإمكاننا منذ الآن إجراء تحليل إجمالي لمكوناته الأساسية. يمكن النفسانية الكبرى أن تنقسم وفقًا لأربعة أبعاد متكاملة:

- اتصاليّ أو «فضاء» بحالة تبدل مستمر: تجمعات، وروابط، وطرق.

- سيميائيّ، أي نظام مفتوح للعروض والصور والرموز من الأشكال والمواد كافة والتي تتحرك في فضاء الاتصالات.

- أكسيولوجيّ أو «قيم» تحدد الانتحاءات الإيجابية أو السلبية، والنوعيات العاطفية المرافقة للعروض أو لمناطق الفضاء النفسي.

- وأخيرًا، طاقويّ، وهو يحدّد قوة التأثر المرتبطة بالصور.

يمكن إذًا أن نتصور النفسانية الاجتماعية نصًا تشعُّبيًا كسرانيًا، وقشرة دماغية تشعبية تتكاثر بطريقة متشابهة على مقاييس مختلفة الأهمية، مارةً بنفسانيات عابرة للأفراد في مجموعات صغيرة، ونفسيات فردية وأرواح تحت الشخصية (مناطق من الدماغ، «مجمعات» غير واعية). وتحتوي كل عقدة أو منطقة من القشرة الدماغية التشعبية بدورها على نفسانية حية، أي على نوع من النص التشعبي الدينامي الذي تجتازه توترات وطاقات، وهو ملون بنوعيات عاطفية ومليء بالانتحاءات وتتخلله الصراعات.

وتتمثل العمليات ضمن هذه النفسانية التشعبية الكسرانية في ما يلي:

- التأثير في الاتصاليّ: إحداث شبكات، فتح أبواب، نشر المعلومة أو على العكس حجزها، الإبقاء على الحواجز، ترشيح المعلومة، بل حتى ضمان أمان المجموع (الاتصالات،

النقل، التجارة، التدريب، الخدمات الاجتماعية، الشرطة، الجيش، الحكومات ...إلخ).

- إنشاء العروض أو تغييرها، الصور، تطوير اللغات المستخدمة والرموز المتداولة بشكل أو بآخر (الفنون، العلوم، التقنيات، الصناعة، وسائل الإعلام ...إلخ).
- بناء الانتحاءات أو تحويلها أو الإبقاء عليها، القيم، العواطف الاجتماعية، مثل الخير والشر، المفيد والضار، الممتع والشاقّ، الجميل والقبيح ...إلخ. (التربية، الدين، الفلسفة، الأخلاق، الفنون...).
- تغيير، وتخفيض قوة التأثيرات المرتبطة بهذا العرض المتداول أو ذاك، ونقلها، وزيادتها (وسائل الإعلام، الدعاية، التجارة، الخطابة...).

يشارك كل حدث بشكل متفاوت وبطريقة جزيئية في مجموع هذه النواحي من حياة النفسانية العُظمى الجماعية، حتى تلك التي لا تكون مسجلة في أيّ صفقة تجارية. ويساهم كل حدث في كل لحظة في عملية الذكاء الجماعي. ومرة أخرى، بالنسبة إلى الاقتصاد الافتراضي الذي يقبل صراحة هذا الإطار الفكري، حتى الاستهلاك يعتبر منتجًا. لقد رأينا أن تفعيل («استهلاك») المعلومة كان في الوقت نفسه عملية إحداث صغيرة (تفسير). ولكن هناك أكثر من ذلك: إن الاستهلاك المتلف التقليدي، ما إن يتم التقاطه وإعادته إلى المنتج أو البائع في لحظة معينة من الضبط أو القياس، حتى يصبح

هو أيضًا بطبيعة الحال عملية توليد للمعلومة ويساهم في زيادة الذكاء الاجتماعي الإجمالي. ويمكن تعميم هذه الفكرة على الشكل التالي: من الناحية الافتراضية، كل عمل هو منتج للثروة الاجتماعية عن طريق مشاركته في الذكاء الاجتماعي، ويشكّل أيُّ عمل إنساني لحظة في عملية الفكر والعاطفة في نفسانية عُظمى وكسرانية، ويمكن إضفاء قيمة على هذا العمل، بل منحه أجرًا على هذا الأساس. وإذا كان بالإمكان التقاط الأعمال كافة ونقلها ودمجها في حلقات ضبط وإعادتها إلى المنتجين، ما يساهم بإعطاء أفضل معلومة شاملة للمجتمع تخصه، فإن الذكاء الجماعي سيتعرض إلى تحول نوعي رئيسي.

ولا يمكن افتراض هذا الاحتمال عمليًا إلّا منذ أن وُجِدت المعالجات الصغرى، والحسّاسات المتناهية في الصغر، في المعلوماتية الموزعة في الشبكة، والتي تعمل في وقت حقيقي، وهي مزودة بسطح بيني سهل الاستعمال (صور، أصوات ...إلخ). ويمكن اعتبار السوق الحالي جنينًا غير مكتمل بعد، وغير متقن، وأحادي البعد بشكل مبالغ فيه لنظام عام للتقويم والتعويض المالي لأعمال كل شخص مِن الجميع. وحتى لا يتحول هذا الاحتمال إلى كابوس، يجب أن نوضح فورًا أن التقويمات ضمن هذا المفهوم يجب أن تبقى مغفلة، وأن كل عمل لا يقوّم فحسب، بل يصدر تقويمه أيضًا. إن نظام الدمج والقياس والضبط الذي نتدارسه هنا، والذي هو نوع من «السوق السامي» المدمج في الفضاء السيبراني، هو قبل كل شيء أداة لتقويم تعاوني، موزع ومتعدد المعايير للمجتمع ومنه.

5

الافتراضانات الثلاثة التي صنعت الإنسان: اللغة والتقنية والعَقْد

يمثل افتراضان الأجسام والرسائل والاقتصاد حركة معاصرة نحو افتراضية أكثر انتشارًا. وأقترح أن نعتبرهذه الحركة بمثابة السعي إلى بشرنة مستمرة. وفي الحقيقة، لقد تشكل جنسنا، كما سأحاولِ أن أبين في هذا الفصل، في الافتراضان وبه. واستنادًا إلى ذلك، يمكن تفسير التحول المعاصر على أنه استئناف للخلق الذاتي للبشرية.

مولد اللغات أو افتراضان الحاضر

أدت ثلاث عمليات افتراضانية إلى بروز الجنس البشري: تطور اللغات، وغزارة التقنيات، وتعقد المؤسسات.

أولًا، اللغة تفرضنُ «زمنًا حقيقيًّا» يجعل الكائن الحي أسيرًا للآن والهُنا. وبالتّالي، تفتح اللغة الماضي والمستقبل، وتفتح الزمن كمملكة في حد ذاتها، أي أنّه حيّز ممتدّ له قوامه الخاص. وانطلاقًا من اختراع اللغة، نقطن نحن البشر في فضاءٍ افتراضيٍ يؤخذ فيه تدفق الزمن ككل، لا يفعّله الحاضر الفوري إلّا جزئيًّا، وبشكل عابر. إننا موجودون.

وليس للزمن البشري في وجوده صيغة المَعْلَمة أو الشيء، (لأنه ليس «حقيقيًّا») وإنّما صيغة الوضعيّة المنفتحة. وفي هذا الزمن الذي

تم تصوره على هذا الشكل والذي نعيشه، لا يتمثل العمل والفكر في الاختيار بين ممكنات محددة مسبقًا فحسب، وإنّما في إعادة تكوين مستمر لشكل دلاليّ من الأهداف والقيود، وارتجال الحلول، وإعادة تفسير أحداث مضت، ولا زلنا مرتبطين بها. ولهذا السبب نعيش الزمن كمسألة. إن الماضي الموروث الذي يتم تذكره وإعادة تفسيره، والحاضر الفاعل، والمستقبل الذي نأمله أو نخشاه أو نتخيله ببساطة، كلّها بترابطاتها الحيّة، من النوع النفسي والوجودي. إنّ الوقت من حيث هو حيّز متّسع كامل غير موجود إلّا افتراضيًّا.

وهناك بالتأكيد أشكال متطورة للذاكرة والقدرة على التعلم عند الحيوانات العليا، حتى عند تلك التي لا تملك لغات معقدة. ومع ذلك، يمكننا أن نفترض أن الذاكرة في الحياة الحيوانية تُعزى بشكل رئيسي إلى تغيير حالي في السلوك يرتبط بأحداث مضت. وفي المقابل، وبفضل اللغة، لدينا إمكان الولوج «المباشر» إلى الماضي على شكل مجموعة هائلة من الذكريات المؤرَّخة والروايات الداخلية.

ولا تذكّر الرموز بـ«أشياء غائبة» فحسب، ولكن أيضًا بمشاهد وحبكات وسلاسل أحداث كاملة يرتبط بعضها ببعض. إنّنا لا نستطيع من دون لغات أن نطرح أسئلة ولا أن نروي قصصًا، وهما طريقتان جيدتان للانفصال عن الحاضر في الوقت الذي نرسّخ فيه وجودنا. يستطيع البشر الانفصال جزئيًّا عن التجربة الجارية والتذكر والاستحضار والتخيل واللعب والتقليد. إنهم ينطلقون بهذا الشكل

إلى أماكن أخرى ولحظات أخرى وعوالم أخرى. ولا ندين بهذه القدرات إلى اللغات، كالفرنسية أو الإنكليزية أو الولوف (wolof)(*) فقط، ولكن أيضًا إلى اللغات التشكيلية والبصرية والموسيقية والرياضيّة ...الخ. وكلما ازدادت اللغات غنى وانتشارًا، كانت هناك إمكانات للمحاكاة والتخيل وحمل موضع ما أو حمل آخرين على التخيّل.

نواجه عند هذه النقطة مرة أخرى طابعًا أساسيًا للافتراضان: يفتح الافتراضان: عند فكّه عقدة اللحظة الراهنة والمكان الراهن فضاءات جديدة وسرعات أخرى. وتظهر بشكل مرتبط بظهور اللغة سرعة تعلم جديدة وسرعة تفكير لا سابق لها. لقد أصبح التطور الثقافي أسرع من التطور البيولوجي. والزمن نفسه يتشعب نحو زمنيات داخلية خاصة باللغة: أي الزمن الخاص بالرواية والإيقاع الداخلي للموسيقى أو الرقص.

إن الانتقال من الخاص إلى العام، والتحول المتبادل من داخل إلى خارج هما من خصائص الافتراضان التي يمكن تحليلها أيضًا بشكل جيد اعتبارًا من المشغّل السيميائي. والعاطفة التي يُعبّر عنها بكلمات أو رسوم يمكن التشارك فيها بشكل أسهل. إنّ ما كان داخليًا وخاصًا قد أصبح خارجيًا وعامًا. ويصحّ الأمر أيضًا في الاتّجاه المقابل: فحين نصغي إلى الموسيقى أو نشاهد لوحة أو نقرأ شعرًا فإننا نجلب موضوعًا عامًّا إلى داخلنا أو نضفي عليه طابعًا شخصيًا.

(*) الولوف (wolof): لغة محكيّة في السنغال وغامبيا وجنوب موريتانيا، وتنتمي إلى صنف اللغات التحليليّة.

ومنذ أن بدأ الإنسان بالكلام، أصبحت الكيانات الشخصية جدًّا والمتمثلة بالعواطف المعقدة والمعارف والمفاهيم خارجية وموضوعية وقابلة للتبادل، وأضحت قادرة على الانتقال من مكان إلى آخر ومن زمن إلى آخر ومن نفس إلى أخرى.

تُفرضُ اللغات الإنسانية الوقت الحقيقي والأشياء المادية والأحداث الحالية والحالات الراهنة. وينجم عن تفكك الحاضر المطلق، وجهان للخليقة نفسها، الزمن وخارج الزمن، وجه الوجود وقفاه. لقد أصبح للأبدي والإلهي والمثالي تاريخ ينمو مع تعقّد اللغات، بإضافته بعدًا جديدًا للعالم. وتقوم الأسئلة والمسائل والفرَضيّات بحفر ثقوب في اللحظة الراهنة والمكان الحالي لتصل إلى الطرف الآخر من المرآة، إلى الوجود الافتراضي الكائن بين الزمن والخلود.

التقنية أو افتراضان الفعل

نذكر مرة أخرى أن الافتراضان لا يترافق بالضرورة مع الاختفاء. بل على النقيض من ذلك، إنه يؤدي غالبًا إلى عملية التحويل إلى مادّة، ويظهر ذلك بسهولة في افتراضان التقنية الذي علينا أن نحلّله الآن.

من أين تأتي الأدوات؟ نقوم قبل كل شيء بالتعرف إلى بعض الوظائف الفيزيائية أو الذهنية للكائنات الحية (الضرب، الإمساك بشيء ما، المشي، الطيران، الحساب). ثم نقوم بانتزاع تلك الوظائف من تركيبة معينة من العظام والعضلات والعصبونات. إنّنا نفصلها إذًا في الوقت نفسه من تجربة داخلية شخصية. ويتم تجسيد الوظيفة

المجردة بأشكال أخرى مختلفة عن الحركة المعتادة. فتحل بدلًا من الجسم الأعزل ترتيبات هجينة وركائز أخرى، والمثل في ذلك المطرقة للضرب، والمصيدة والصنارة أو الشبكة للاستيلاء على الغنيمة، والعجلة للسير، والبالون المنفوخ بالهواء أو أجنحة الطائرة أو مروحة الهليوكوبتر للطيران، والعدادة أو المسطرة الحسابية للعمليات الحسابية. ويفضل هذا التجسيد، يصبح الخاصّ عامًّا ومقتسمًا. وما كان غير قابل للانفصال عن الفورية الشخصية وعن الداخلية العضوية أصبح الآن في الخارج كليًّا أو جزئيًّا ضمن غرض ما. ولكن بنوع من لولبية جدلية؛ لا تصبح الظاهرية التقنية فعالة إلّا إذا تم إدراجها في مقابل ذلك. ولكي نستخدم أداة ما، ينبغي تعلم بعض الحركات واكتساب الآليات التلقائية وإعادة تشكيل هويّتنا الذهنية والجسدية. لقد عدّل الحداد والمتزلج وسائق السيارة والحاصدة وحائكة الصنارة وراكبة الدراجة عضلاتهم ومنظوماتهم العصبية لدمج الأدوات بنوع من الجسم الموسع والمتغيِّر والافتراضي. وبما أن الظاهرية التقنية عامة وقابلة للتقاسم فإنها تساهم في المقابل في صياغة الذاتيّة الجماعية.

تتغذى الدينامية التقنية من منتجاتها الخاصة، وتقوم بتشكيلات عرضانية جذمورية، وتؤدي في النهاية إلى آلات وترتيبات معقدة بعيدة جدًّا عن الوظائف الجسدية البسيطة. يُفرضن القارب الشراعي أو الطاحونة المائية أو الساعة الجدارية أو المحطة النووية وظائف حركية أو إدراكية أو ناظمة للحرارة من دون أن تُفهم على أنها امتدادات لأجسام فردية، وسنعود إلى هذه النقطة مجدّدًا. ولا تتم

إعادة دمجها الكامل أو إدخالها إلّا على مقياس الآلات الضخمة الاجتماعية الهجينة، أو الأجسام التشعبية الجماعية.

إن تصميم أداة جديدة يفرضن تشكيلة أعضاء وحركات لا تبدو حينها إلّا كَحَلّ خاص، وموضعي ومؤقت. وحين نتصور أداة ما، فعوضًا عن التركيز في فعل مُعيَّن يجري، فإننا نرتقي إلى الصعيد الأعلى لمجموعة غير محددة من الحالات. إن ظهور الأداة لا يكون جوابًا لمحرض خاص ولكنه يجسد جزئيًا وظيفة إجمالية، ويشكل نقطة ارتكاز لحل فئة من المسائل. إنّ الأداة في اليد إنّما هي شيء حقيقي، ولكن هذا الشيء يتيح الولوج إلى مجموعة غير محددة من الاستخدامات الممكنة.

استنادًا إلى مارشال ماك لوهان (Marshall McLuhan) وأندريه لوروا غوران (André Leroi-Gourhan)، نقول أحيانًا إنّ الأدوات هي استمرارية أو امتداد للجسم. ولكن، لا يبدو لي أن هذه النظرية توفّي نوعية الظاهرة التقنية حقها. ويمكننا أن نعطي أقاربنا أحجار صوان منحوتة كما يمكننا إنتاج آلاف الأحجار المصقولة الجانبين، ولكن لا يمكننا زيادة أظافرنا أو إعارتها إلى جارتنا. إنّ الأداة تعتبر بمثابة افتراضان للعمل أكثر من كونها مجرد امتداد للجسم. وقد توحي المطرقة بأنها امتداد للذراع، لكن العجلة بالمقابل ليست امتدادًا للساق بل هي افتراضان للمشي.

ثمّة قليل من افتراضانات الأفعال، وكثير من التفعيل للأدوات، وربما اخْتُرِعَت المطرقة ثلاث مرات أو أربعًا عبر التاريخ، أي

ثلاثة افتراضات أو أربعة. ولكن كم ضربةً بالمطرقة تمت؟ إنها عدة مليارات من التفعيلات. إنّ الأداة واستمرارية شكلها تمثّلان ذاكرة اللحظة الأصلية الافتراضية للجسم أثناء العمل. إنّ الأداة تبلور الافتراضي.

لا تفرضن التقنية الأجسام والأعمال فحسب، ولكنها تفرضن الأشياء أيضًا. وقبل أن يتعلم الناس أن يصدموا أحجار الصوان بعضها ببعض فوق كومة صغيرة من الصوفان، لم يكونوا يعرفون عن النار سوى أنها موجودة أو غائبة. ومنذ اختراع تقنيات الإشعال، أصبح بإمكان النار أن تكون افتراضية أيضًا. النار افتراضية في أي مكان توجد فيه أعواد الكبريت. إن وجود النار أو غيابها كان واقعًا يجب التعامل معه، بينما هو الآن احتمال مفتوح. ولقد تحول القيد إلى متغيّر. ونتيجة لذلك، يمكن النظر إلى الأداة التقنية نفسها بحسب أربعة أنماط وجود: التحول إلى إشكالية، والتهجير، والانتقال إلى الجمهور، وإعادة تشكيل وظيفة جسدية. وهكذا تصبح الأداة التقنية عامل افتراضان. تقوم مطرقة ما بالتحول الافتراضي حين نعتبرها ذاكرة لاختراع المطرقة، وناقلًا لمفهوم، وعاملًا لتهجين الجسم. ففي هذه الحالة، تكون المطرقة موجودة وتساعد على الوجود.

مع كل ضربة مدقٍّ أو منقاش، تتفعّل المطرقة الافتراضية، التي هي اليوم الشاهد على ظهور طريقة جديدة في الضرب. وتقود المطرقة العمل بالتفعيل. ونحصل بالفعل على شكل مُعيّن أو تهجين

مُعيّن لهذا الجسم بواسطتها، هنا والآن وبشكل مختلف في كل مرة. كل ضربة مطرقة هي بمثابة ظهور ومحاولة لحل مشكلة على المستوى الجزيئي وهي تخفق أحيانًا، إذ إننا قد نضرب بشكل سيّئ أو أقوى من اللازم أو نخفق في الضرب.

المطرقة الحقيقية هي تلك الكتلة، هذه الفأس أو هذه المطرقة التي يستخدمها النحات: إنها الشيء مع ثَمَنه ووزنه ومقبضه الخشبي ورأسه المعدني وشكله المحدد. والمطرقة الحقيقية يجب سبكها وتجميعها وتحقيقها من المنتج وإيداعها في المخزن وحمايتها. والمطرقة تقاوم أو تدوم.

وتحتوي المطرقة أخيرًا على كُمون، وعلى قوة، وعلى قدرة. وعلى اعتبار أنّ المطرقة تمثل قوة كامنة، فهي تُعدّ شيئًا قابلًا للتلف، فيها احتياطي محدد من الضربات والاستخدامات الخاصة. ولا تعتبر المطرقة ناقلًا لتحول الجسم أو انفتاحًا لعلاقة فيزيائية جديدة على العالم (المطرقة الافتراضية)، ولا ناقلًا لعمل خاص هنا والآن (المطرقة الضاربة المفعَّلة)، ولا شيئًا ماديًا (المطرقة الحقيقية)، ولكنها تُعتبرُ خزانًا لمُمكنات. وبالتالي، فإن القدرة الكامنة لمطرقة جديدة تكون أكبر منها في مطرقة قديمة ومطرقة الإسكافي ليس لها الطاقة الكامنة النوعية نفسها التي لمنقار عامل الزجاج. إنّ المطرقة لا تزال تلحّ.

العَقد أو افتراضان العنف

انبثقت الإنسانية من ثلاث سيرورات افتراضيّة. أمّا أولى السيرورات، فكانت مرتبطة بالرموز: افتراضان الزمن الحقيقيّ.

وأمّا الثانية، فتكفلت بها التقنيات: افتراض الأفعال والجسم والبيئة الفيزيائية. وأمّا السيرورة الثالثة فتنمو مع تعقيد العلاقات الاجتماعية: للإشارة إليها بشكل موجز جدًّا، نقول: إنّها افتراض العنف.

إنّ الطقوس والديانات والأخلاق والقواعد الاقتصادية أو السياسية هي ترتيبات اجتماعية لافتراض العلاقات المبنية على موازين القوى، والنزوات، والغرائز، والرغبات الفورية. ويجعل الاتفاق أو العقد، كمثال متميِّز، تعريف العلاقة في استقلال عن الوضع الخاص، ومبدئيًّا، في استقلال عن التبدلات العاطفية عند الناس الملتزمين بها، وفي استقلال عن تقلب موازين القوى.

ويتضمن القانون كمية غير محددة من التفاصيل الافتراضية، وجزء صغير منها فقط مذكور بشكل واضح في نص القانون. ففي مجتمع ما، ينطبق الطقس نفسه (الزواج مثلًا أو شعائر التكريس) على تشكيلة غير محددة من الأشخاص. يجري تغيير الوضعية («أنت الآن متزوج»، «أنت الآن شخص بالغ») بشكل تلقائي ومتماثل لدى الجميع. ولسنا مضطرين لاختراع شيء جديد أو التفاوض عليه في كل حالة خاصة. إن أمثلة التكريس أو الزواج أو البيع، تظهر لنا أنّ افتراض العلاقات والنزوات الفورية يحدد أيضًا إجراءات دقيقة لتحويل العلاقات والأحوال الشخصية، بالإضافة إلى منحها السلوك والهوية استقرارًا.

وبواسطة اللغة، يجري تناقل العاطفة التي قامت الرواية بجعلها افتراضية من فم إلى آخر. وبفضل التقنية، ينتقل الفعل الذي جعلته الأداة افتراضيًا من يد إلى أخرى. وكذلك الشأن في دائرة العلاقات الاجتماعية، إذ يمكننا تنظيم حركة أو تهجير العلاقات الافتراضية. إنّ صك الملكية أو الأسهم في شركة ما أو عقد التأمين أصبحت قابلة للبيع أو نقل الملكيّة. وأصبح بالإمكان تداول اعتراف بدَيْن، أو كمبيالة، أو سند مالي بين عدد غير محدد من الأشخاص، وهي جميعًا لم تكن تخصّ في البداية سوى فريقين، ونستطيع أيضًا أن ننتخب ناطقًا باسمنا أو نعلم الصلاة أو نشتري تميمة.

إن العلاقات الافتراضية المجمدة، كالعقود، هي كيانات عامة يقع تقاسمها ضمن المجتمع. وهي إجراءات وقواعد سلوكية جديدة تتمفصل مع التي سبقتها. وتفضي السيرورة المستمرة لافتراضية العلاقات شيئًا فشيئًا إلى تعقّد الثقافات الإنسانية: الدين، والأخلاق، والقانون، والسياسة، والاقتصاد. وربما لا يشكل التفاهم حالة طبيعية لأن البناء الاجتماعي بالنسبة إلى البشر يمرّ عبر الافتراضان.

الفن أو افتراضان الافتراضان

لماذا يهتم كثير من الناس بالفن في الوقت الذي يصعب وصفه؟ لأنه يمثل قمة الإنسانية لعدة أسباب. ولم يمارس أي جنس حيواني الفنون الجميلة أبدًا لسبب وجيه: يوجَدُ الفن في تقاطع ثلاثة تيارات كبيرة للافتراضان والبشرنة، وتتمثل في اللغات والتقنيات والأخلاق

(أو الأديان). ويصعب تعريف الفن لأنه موجود دومًا على حدود اللغة التعبيرية البسيطة، أو التقنية العادية (الحرفة اليدوية) أو الوظيفة الاجتماعية المحددة بوضوح. إنه يبهر لأنه يضع موضع التنفيذ أكثر النشاطات افتراضيّة.

يعطي الفن في الواقع شكلًا خارجيًا وتظاهرة عامة لعواطف وأحاسيس يتم الشعور بها في حميميّة الشخصية. ونحن نشعر بأن هذه العواطف هي ملح الحياة، على الرغم من عدم إمكان تلمّسها، وعلى الرغم من كونها عابرة. وبتحويل تلك العواطف إلى كيان مستقل عن لحظة ومكان معينين أو بإعطائها على الأقل بعدًا جماعيًا (بالنسبة إلى الفنون الحية)، فإن الفن يجعلنا نشارك في طريقة إحساس ما، ونوعية تجربة شخصية.

إنّ الافتراضان، بشكل عامّ، هو حرب على الهشاشة والألم والاهتراء. وتوَخّيًا للأمان والتحكم، فإننا نلاحق الافتراضي لأنه يقودنا إلى مناطق أنطولوجية لا تدركها الأخطار العادية. ويطرح الفن تساؤلات على هذا التيار، وبالتالي هو يعطي الطابع الافتراضي للافتراضان، لأنه يفتش في الوقت نفسه عن مخرج من المكان واللحظة الراهنين وحماستهما الشهوانية. إنه يستأنف محاولة الهرب نفسها في كل تعرجاتها. ويعقد ويحل في أدائه الطاقة العاطفية التي تجعلنا نتجاوز الفوضى. وفي نهاية المطاف، يحدث ـ وهو يندّد بمحرّك الافتراضان ـ إشكاليةً في الجهد الذي بذلناه من دون كلل للهرب من الموت، وهو جهد مُثمر حينًا ومحكوم عليه بالفشل دومًا.

6

عمليات الافترضان
أو الثلاثي الأنتروبولوجي

هل ثمّة نواة غير متبدلة لعمليّات الافترضان، أو وصفة للافتراضي؟ سنجازف بجواب إيجابي عن هذا السؤال، ولكن بشكل جزئي وعامّ جدًّا فحسب. ولا يعفي هذا الجواب، في كل حالة خاصة، من اكتشاف جريء، ولا من بناء جماعي طويل ومكلف. والنظرية التي سنعرضها وإنْ أتاحت لنا أن نتعرف إلى حالة افترضان بعد حدوثها وأن نحللها ونتناولها بالتفصيل، فإنها للأسف ليست دليل ابتكار معصومًا عن الخطأ.

ثلاثيّ العلامات

لنبدأ بفحص حالة اللغة. وسنتبع في ذلك مسار الثلاثيّ. شكّل الطريق الثلاثي أوالتريفيوم (trivium) أساس التعليم الليبرالي في العصر القديم وفي القرون الوسطى. وكان يتضمن النحو (معرفة القراءة والكتابة بشكل جيد) والجدل (معرفة التفكير) والبلاغة (معرفة تأليف الخطابات والإقناع). ونفترض أن كل طريق من «الطرق» الثلاثة يتضمن عمليات لا زالت مستخدمة في عمليّات الافترضان.

لنبدأ بالنحو. من خلال سلسلة متصلة من الأصوات تفصل اللغة أو تقتطع صواتم (phonèmes)(*) وهي عناصر أولية لا معنى

(*) (phonème): اصطلاح لسانيّ محدث، ويعني الوحدة الصوتية الدنيا غير الدالّة في ذاتها، ويترجم عادة بالصوتم والصُّواتة.



لها. ويتم تحليل الوحدات ذات المعنى (الكلمات أو الجمل أو «العبارات») على أنها سلاسل لعناصر مجردة من المعنى بحد ذاتها (الصواتم). ويكون لكل تشكيلة عناصر معنى مختلفة، وتأخذ العناصر قيمة مختلفة في كل تشكيلة. فالنحو هو فن تركيب وحدات صغيرة ذات معنى بعناصر لا معنى لها، ووحدات كبيرة ذات معنى (جمل، وأحاديث) مع الوحدات الصغيرة. ولنلاحظ أن العمليات «النحويّة» المتمثلة في تقطيع العناصر وترتيبها لا تخصّ اللغة وحدها، وإنّما الكتابة أيضًا بما في ذلك الكتابات غير الأبجدية.

بعد النحو، يأتي الجدل. والجدل هو قبل كل شيء فن الحوار، وهو يشير الآن إلى علم الحجاج، وكان يشير في جامعات القرون الوسطى إلى علم المنطق وعلم الدلالة. لقد كان النحو معنيًّا بالتمفصل الداخلي للغة واستعمال الأدوات اللغوية والكتابية. أمّا الجدل فكان يُرسي بالمقابل علاقة تبادلية بين المتحدثين، إذ لا يوجد جهد برهاني من دون خلفية تكافؤ ذهني. ويقوم الجدل بعمله هذا بربط نظام علامات مع عالم موضوعي وضعه المتحدثون في مكان الوسيط. هل الاقتراحات صحيحة أم خاطئة؟ ولماذا؟ وكيف يمكن أن تتطابق مع وضع العالم؟ يهتم الجدل في وقت واحد بالعلاقة مع الآخر (الحجاج) والعلاقة مع «الخارج» (الدلالة، والمرجع). ولا توجد لغة بدون هذه العمليات التراسلية أو عمليات الاستبدال الاصطلاحية بين نظام العلامات ونظام الأشياء.

وأخيرًا، تشير البلاغة إلى فن التأثير في الغير وفي العالم بالاستعانة بالعلامات. وفي المرحلة البلاغية أو التداوليّة، لا يتعلق

الأمر بتمثيل وضع الأشياء فحسب، ولكن أيضًا بتغييره، بل بإنشاء واقع منبثق من اللغة، وتوخّيًا للدقة أي إنشاء عالم افتراضي: عالم الفن، وعالم الخيال، وعالم الثقافة، وعالم الذهن الإنساني. ويفيد هذا العالم الذي تفرزه اللغة عند الاقتضاء كمرجع لعمليات جدلية أو يعاد استخدامه في مشاريع ابتكارية أخرى. ولا تحلّق اللغة إلّا في مرحلة البلاغة، ففي هذه الحالة تغذّي اللغة نفسَها بنشاطها الخاص وتفرض غايتها وتعيد ابتكار العالم.

ثلاثيّ الأشياء

تقوم فرضيّتي على كون العمليات النحوية والجدلية والبلاغية، التي هي مفاتيح القوة الافتراضية للغة، تخص كذلك التقنية وتعقيد العلاقات. إن فكرة «تلخيص كل شيء باللغة» بعيدة عني. ويتعلق الأمر، على النقيض من ذلك، بإبراز ما هو خلف فعالية اللغة، أي البنية المجردة والحيادية التي تميز أيضًا أنماط نشاطات إنسانية أخرى قادرة على جعلنا نفلت من المكان الراهن واللحظة الراهنة.

في ما يخص التقنية، يقوم النحو بتقطيع الحركات الأساسية التي يمكن استخدامها في مقاطع مختلفة، أو أفعال بحسب الحالة. ولنفكر بالطريقة التي نتعلم بها الرياضة البدنية، والرقص، وكرة المضرب، والمبارزة بالسيف، والفنون القتالية وعددًا من المهارات المهنية. يمكننا أن نؤكد استنادًا إلى أبحاث ميشيل فوكو أن هذا التقطيع إلى حركات أساسية هو ظاهرة حديثة ظهرت في أوروبا في العصر التقليدي وتتعلق بمقاربة تنظيمية للجسم. هذا أكيد، ولكن من

جهة ما، فإنه لمن الأهمية أن نتمكن من تقطيع أعمالنا الفيزيائية وأن يمنحنا ذلك عمومًا زيادة في الفعالية، على الأقل في تعليم الجماهير. ومن جهة أخرى فإنّ تقطيعًا كهذا الذي أصبح صريحًا (لأنفسنا) في ثقافة معينة لا يعني أنه غير مطبق ضمنيًا (في النفس) عند الآخرين. إنّ حالة اللغات تظهر لنا ذلك بطريقة واضحة. ولم يكن النحو من حيث هو نظام مشكّل موجودًا قبل الكتابة، وأغلب الناس يتعلمون الكلام من دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عنه. وهذا لا يمنع الكلمات من أن تكون في الحقيقة ناجمة عن تشكيلات صوتميّة، ولا أن تكون أيّ لغة (من بين غيرها من اللغات) نوعًا من نظام تشكيلي يلتزم قواعد خاصة في تأليف مقاطع صوتية.

لا يخص النحو التقنيّ الحركات فحسب، بل يحيل أيضًا إلى مكوّنات مادية أساسية يمكن ترتيبها لتركيب تشكيلات مصطنعة أو أدوات. على سبيل المثال: يفيد المقبض نفسه في صنع رفش أو معول، وكذلك فإن قطع قرميد متماثلة يمكن أن تدخل في عملية بناء منازل مختلفة جدًا.

وبقدر ما نحن مستعدون لقبول نوع مخصوص من النحو التقنيّ، فإنّ جدلية الأشياء تبدو إشكالية. وتحيل اللغة في الحقيقة إلى العالم الحقيقي، وتسمح بإنتاج اقتراحات صحيحة أو خاطئة، وتولد أحاسيس أو أفكارًا. إنّها تعطي في نهاية المطاف معنًى، أمّا التقنية فتبدو منتمية إلى نظام آخر غير نظام المعنى، وهو نظام العمل الفعال؛ نظام العملانية. وتحرّض اللغة حالات ذهنية، أما الأداة فتحرك

المادة. فكيف يمكن إذًا أن تكون هناك جدلية للأدوات؟ وبالرغم من ذلك فإن للتقنية معنى هي أيضًا.

في قلب المعنى توجد عملية استبدال. فإذا كانت كلمة «شجرة» تعطي معنى، فهذا لأنها تعني شجرة حقيقية في بعض الظروف وفي استخدامات محددة. وتقريبًا بالطريقة نفسها، يعادل ترتيب تقني ما ترتيبًا آخر غير تقني أو ذا تقنية أقل تعقيدًا. فيحل النظام الحديث للماء الجاري إلى كل الطوابق مثلًا محل الدلو الذي نأخذه إلى السبيل. ويحل السبيل المهيأ في الساحة بدوره محل السير نحو النبع أو النهر. و«تدل» صنابير المطبخ والحمام على «المعنى» التالي: لم يعد عليك أن تستخرج الماء من البئر أو أن تستأجر خدمات حامل الماء. وثمّة مثال آخر: الدراجة ليست غرضًا تقنيًا إلّا لأنها تحل محل السير على الأقدام، وبدون تجهيزات ميكانيكية أو جواد باهظ الثمن. وكقاعدة عامة، فإنّ معنى الظاهرة المصطنعة أو الأداة هو الترتيب الذي اضطررنا إلى تحقيقه للحصول على النتيجة نفسها لو لم يتم ابتكاره. إنّ الغرض التقني لا يؤدي كالرمز وظيفة الاستبدال فحسب، ولكن بالإضافة إلى ذلك يقوم بنمط التجريد نفسه. ولا تحيل كلمة «شجرة» إلى شجرة التين في حديقتي أو إلى شجرة القضبان في الغابة، ولكن إلى كلّ شجرة خاصة بل إلى المفهوم العام للشجرة. ولا تحل الدراجة كذلك بالضرورة محل هاتين الرجلين الساعيتين أو هذا الحصان في الإسطبل. إنّ وظيفة عامة في النقل تعادل وظيفة مجردة، منفصلة مبدئيًا عن هذا «المرجع» الخاص أو ذاك، وتحيل إلى عدد غير محدود من حالات التنقل الملموسة أو ترتيباتها.

وفي الختام، تمتلك التقنية ـ هي أيضًا ـ بلاغتها، بمعنى أن حركتها ليست محددة بتراكم الظواهر الإنسانية المصطنعة والأدوات «العملية» و«المفيدة» التي تسمح بتوفير الوقت والجهد. ويفتح الابتكار التقني احتمالات جديدة تمامًا يؤدي انتشارها إلى نمو عالم مستقل. إنه عملية استحداث طبيعية لا يستطيع أي معيار نفعي جامد أن يعبر عنها. وفي الواقع، إذا بقينا في مجال الجدلية التقنية، فبإمكاننا أيضًا تحديد الأدوات ضمن نطاق الوسائل. وتبقى أهداف الشرب أو الذهاب إلى القرية المجاورة كما هي، لكن تقنيات جر المياه أو الدراجة تفيد في بلوغها بشكل أسرع وبنفقة أقل. غير أنّ إنتاج الظواهر الإنسانية المصطنعة يبلغ درجة البلاغة حين تشارك في خلق أهداف جديدة. فعلى سبيل المثال، أتاحت الحاسبات الإلكترونية التي تم صنعها في الأربعينيات القيام بعمليات حسابية أسرع ألف مرة من الحاسبات الميكانيكية الكهربائية أو التماثلية السابقة. ولكننا لم نكتف بجعل الآلات الجديدة تقوم بالعمليات نفسها بشكل أسرع من الآلات القديمة. بل قمنا باستغلال زيادة السرعة هذه لنغيِّر مفهوم الآلات الحاسبة جذريًا. وعوض أن نصنع أدوات متخصصة في حساب هذا النوع من العمليات أو ذاك، قمنا بصنع آلات حاسبة عامة، قابلة للبرمجة، وقادرة على تنفيذ أي نمط من معالجة المعلومة. ولم يكن ذلك ممكنًا إلّا بفضل السرعة المكتسبة بالإلكترونيات التي كانت تعفينا من تحسين التنظيم المادي للدارات بحسب العمليات المطلوبة. وبهذا الشكل، جرت ولادة المعلوماتية وبدأ انتشار عالم البرمجيات. إنّ الرؤية المسطحة للمعلوماتية التي تقتصر على الجدلية

تؤدي إلى اختزالها إلى مجموعة أدوات تفيد في الحساب والكتابة والتصور والتواصل بشكل أسرع وأفضل. أمّا المقاربة البلاغية الكاملة فتكتشف في المعلوماتية حيّزًا للإنتاج وتداولًا للعلامات يختلف نوعيًّا عمّا سبقه، وتتغير فيه قواعد الفعالية ومعايير التقويم والمنفعة. لقد انخرط جنسنا البشري بشكل نهائي في هذا الفضاء المعلوماتي الجديد، وبالتالي فإنّ السؤال ليس في تقويم «نفعه»، ولكن في تحديد الاتجاه الواجب اتخاذه لمتابعة عملية استحداث ثقافية غير عكوس. وباستطاعتنا أن نقول الشيء نفسه عن مجموع وسائل النقل التي قامت فعلًا بتغيير الجغرافيا وجعلت التمييز القديم جدًّا بين المدينة والقرية غير واضح بشكل أكبر ممّا فعلته العربات المجرورة بالخيل والقوارب الشراعية. والسيارة هي بالتأكيد وسيلة نقل، بل أكثر من ذلك، إنّها المشغل الرئيسي المديني المعاصر.

كلما نما الفضاء التقني، اندمجت عناصره في الديكور وأصبحت طبيعية ودخلت في جدلية الأهداف التي تم بلوغها والوسائل التي تتحسن. ولكن النشاط التقني يفتح على حدوده الأمامية، وفي السطح البيني المتحرك للإبداع والمجهول، عوالم افتراضية يتم فيها إعداد أهداف جديدة.

ثلاثيّ الكائنات

في نهاية المطاف، يتعلق التعقيد العلائقي كذلك بثالوث أنتروبولوجي عام. ففي مرحلة النحو، يجب تحديد العناصر القادرة على الدخول في تركيب الترتيبات التعاقدية والقانونية والاجتماعية

والسياسية والأخلاقية والدينية وتقطيعها. ونشير إلى أنّ هذه العناصر القابلة لإعادة التشكيل هي أيضًا بدرجة التوافقية وانعدام المعنى في الصواتم: المشاعر، والأهواء، وذرات العلاقات، والأفعال، وأجزاء الروح، والأشخاص، والناس، وهي كلها لَبِنات أساسيّة للتصرفات والعلاقات والهويات الاجتماعية.

ولكي تستقر الحياة الجماعية وتتعقد، يجب أن تكون ثمّة عناصر غير متبدلة، كالتحية والغضب والإهانة والوعد والثناء، وتمكن معرفتها ضمن تشكيلة غير محددة من الظروف. أمّا من الناحية الفيزيائية البحتة، فتكون الأصوات كلها مختلفة. وفي سيرورة افتراضان اللغة فحسب، يمثل صوتان مختلفان الصوتمَ ذاتهُ، الوحدة الصوتية ذاتها. وينطبق الأمر نفسه على أصناف المشاعر أو الأعمال الاجتماعية التي يختلف بعضها عن بعض على الصعيد النفسي فحسب، لكنها تمثل مع ذلك الجوهر العلائقي نفسه في عملية بناء التعقيد الاجتماعي. واعتبارًا من العناصر الأساسية يُصنع عدد غير محدود من المقاطع التفاعلية أو نوع من النص، أو النص التشعبي العلائقي.

لقد تناولنا في الفصل أعلاه البعد الجدلي للأخلاق المعتبرة هنا بالمعنى العام للتعقيد العلائقي والسلوكي. يحل العقد محل ميزان القوى أو النقاش المستمر، ويعفي الطقس الشعائري من التفاوض حول رغبة أو هوية. وكما في حالة اللغة والتقنية، فإن سلسلة من الأفعال تحيل إلى تركيبات أخلاقية بشكل تكراري حتى يتشكل تراكم لمعانٍ متواقتة كبعد توافقي للرباط الاجتماعي. وتحل عملية

رمزية محل التضحية بحيوان؛ فالتضحية بحيوان تكافئ التضحية بإنسان؛ والتضحية بإنسان تمنع الحرب الأهلية.

وأخيرًا يجب علينا في المرحلة البلاغية أن نلاحظ نمو عالم علائقي مستقل عن المستويات القانونية والمؤسساتية والسياسية والتجارية والأخلاقية والدينية. ومن جديد، تترك مسألة المنفعة والوظيفة والمرجعية مكانها للقدرة على إعطاء المعنى، أو بالأحرى تغيير المعنى، وخلق عوالم للمعنى جديدة تمامًا: ابتداع عبادة الإله الواحد والقانون الروماني والديمقراطية والاقتصاد الرأسمالي.

النحو، أصل الافتراضان

لماذا تشكل الطبقات الثلاث للتريفيوم طريقًا للافتراضان؟ لنتناول المراحل الثلاث من جديد، كل واحدة منها على حدة.

تقوم عمليات الإنحاء بتقطيع سلسلة متصلة ومرتبطة بقوة بأشياء حاضرة هنا والآن، عناصر أو علاقات أو حالات خاصة، للحصول في نهاية المطاف على عناصر توافقية أو معيارية. ويمكن فك هذه الذرّات المجردة ونقلها وهي مستقلة عن الظروف الحيَّة. إنها تشكل الدرجة الدنيا من الافتراضيّ، ذلك أنّ بإمكان كل واحدة منها أن تتفعّل بعدد غير محدود من احتمالات الحدوث، يختلف نوعيًّا بعضها عن بعض، ولكن يمكن التعرف إليها كنسخ العنصر الافتراضي نفسه. إذًا، نحن لا نتعامل مع وحدات حقيقية أو مادية. ويجب التنبيه إلى هذه النقطة، لأنها تحدث الفرق كله بين التحليل على المنوال الديكارتي الذي يقوم بتقطيع الأجزاء الحقيقية، والإنحاء الذي يولد جزيئات

افتراضية. وتتيح خاصيتها التي تقوم على انعدام وجود معنى إعادة استعمال مجموعة محددة من القطع الأساسية والحرة والقابلة للانفصال لبناء عدد غير محدود من المقاطع والسلاسل أوالمركبات ذات المعنى. ولا يمكن مبدئيًّا استنتاج معنى الشيء المركب اعتبارًا من قائمة عناصره: وهنا، يتعلق الأمر بتفعيل خلّاق بحسب الظرف.

إنّ مصير الكتابة يوضح بشكل جيد آلية الإنحاء، وهذا ما يؤكده علم الاشتقاق: حيث إن *gramma* هي من اللغة اليونانية القديمة، وتعني الحرف. والكلام لا يمكن فصله عن النفس وعن الحضور الحي، هنا والآن. والكتابة (إنحاء الكلام)، تقوم بفصل الرسالة عن الجسم الحي وعن الحالة الخاصة. وتتابع المطبعة هذه السيرورة بتوحيد مقاييس الكتابة، وفصل النص المقروء عن الأثر المباشر للجهد العضلي. فالخاصية الافتراضية للطباعة هي **الطابع المتحرك**. ونجد في كل عمليات الافتراضان تقريبًا مكافئا لـ«طابع متحرك»، متحرر أو مفصول عن حالات ملموسة، وهذه العمليّات قابلة للتكاثر ومتنقلة.

لقد سرّع انتشار المعلوماتية الحركة التي بدأتها الكتابة بتقليص كل رسالة إلى تشكيلات مكونة اعتبارًا من رمزين أساسيين هما الصفر والواحد. وهذان الرمزان هما الأقل معنى، وهما مع ذلك متماثلان في كل ركائز الذاكرة. ومهما كانت طبيعة الرسالة، فإنها تشكل مقاطع قابلة للترجمة في الحاسوب وفي كلّ حاسوب. إن المعلوماتية هي الأكثر افتراضًا من بين التقنيات الأخرى، لأنها

أيضًا الأكثر اعتمادًا للإنحاء. إنّنا نعلم أن اللغة تتميز بمفصلين اثنين، المفصل الذي يربط الصواتم بالوحدات ذات المعنى (الكلمات)، والمفصل الذي يربط الكلمات بعضها ببعض لتركيب الجمل. وفي ما يخص المعلوماتية، باستطاعتنا أن نتحدث عن مفصل يحتوي على عدد (ع) من الاصطلاحات: رموز إلكترونية أساسية، لغات ـ آلات، لغات برمجة، لغات عالية المستوى، واجهات بينية، ومشغلي الترجمات المتعددة للوصول إلى الكتابة التقليدية، وإلى اللغة، وإلى كل الأشكال البصرية والصوتية، وإلى أنظمة رموز جديدة تفاعلية.

إنّ العلاقة بين الظواهر المعاصرة للتهجير والعولمة من جهة، ومعيرة (الافتراضان) العناصر الأساسية التي تقبل إعادة التشكيل من جهة أخرى، هي أمر بديهي. وتتيح المعيرة التوافق بين أنظمة معلومات وأنظمة اقتصادية وأنظمة نقل مختلفة. كما تسمح انطلاقًا من ذلك بتشكيل فضاءات اقتصادية، ومعلوماتية أو فيزيائية مفتوحة وحرة التنقل، حيث تغطي الأشكال البارزة للعيان فيها (السيارات، الطائرات، الحواسيب) في الواقع مجموعة مترابطة، ومتقلبة ومستمرة من المكونات القابلة للترابط. وكما أن الحواسيب انتهى بها الأمر إلى الانصهار مع تنامي الفضاء السيبراني، فإن الطائرات ليست إلّا العناصر الظاهرة لنظام دولي مدمج للنقل الجوي يتمثل مركزه في التنسيق بين المطارات.

لنأخذ الآن، بعد الرموز والتقنية، بعض الأمثلة في مجال الأشكال الاجتماعية. كيف أدى الإنحاء إلى ظهور أنماط جديدة

من العقود والسلوك؟ إنّ كتاب ستيفن شابين (Steven Shapin) وسيمون شيفر (Simon Schaffer) وعنوانه: **ليفياثان ومضخة الهواء** (*Léviathan et la pompe à air*)، يروي ولادة الأسرة العلمية العصرية في القرن السابع عشر من خلال المناظرة بين هوبز (Hobbes) وبويل (Boyle). يريد بويل تحديد القواعد التي توجه فريق «المناصرين للتجربة» وبخاصة الفصل الصارم بين **الوقائع** من جهة، التي يجب أن يتوافر فيها الإجماع وقابلية الحدوث في المختبر وإمكان استنتاجها من شهود جديرين بالثقة، ومن جهة أخرى **الفرضيات**، أي النظريات أو التفسيرات السببية التي لا تكون فيها موافقة الأسرة العلمية ضرورية. وفي مقابل ذلك، يرفض هوبز أن يقبل بهذا الفصل بين الوقائع والتفسيرات السببية. وإذا لم يكن قلب النشاط «الفلسفي» هو التفسير بالأسباب، فإنه لا يرى نفعًا فيه. ويؤكد بالإضافة إلى ذلك أنه من المستحيل، في الواقع، الفصل بين إثبات الحالات وصياغة الفرضيات أو التفسيرات التي توجه وجهة النظر وتشكلها. لقد أخذ هوبز يفكّك «الوقائع» التي حصل عليها بويل بإظهار طابعها التوافقي والمبني بطريقة ما. وكان هوبز محقًّا: فالفصل بين الحقائق «المجردة من المعنى» والتفسيرات إنّما هو فصل اصطناعي. ولكن، هل تكمن المشكلة الأساسية لبويل ومناصري التجربة في أن يكونوا على حق؟ أي أن يتقيدوا في النهاية بالحقيقي؟ أليست مشكلتهم بالأحرى أن يضعوا ترتيبًا قادرًا على أن يعزل من المعرفة قسمًا افتراضيًّا، ومتحركًا، وقابلًا للتكاثر، ومستقلًّا عن الأشخاص وإنْ لم يكن ذلك

إلّا في شبكة ضيقة من المختبرات المزودة بالإمكانات لإعادة التجارب؟ إنّ الطابع المتحرك هنا والقابل للانفصال والمجرد من المعنى والمتنقل هو الواقعة. وإن الجهد لإرساء العلم كآلة تنشر الافتراضان كان أكثر نجاعة من إرادة التقيّد بالحقيقي أو بقول الحقيقة.

وفي النهاية، سيوضح مثال متميّز القوّة الافتراضانيّة للإنحاء. لن أذكر هنا افتراضان المعرفة على يد الأسرة العلمية، ولكن افتراضان الاعتراف بالعلوم والمهارات من المجتمع ككل. بمعنى أن كفاءات الأفراد تكون فريدة ومرتبطة بمسار حياتهم الفردي ولا يمكن فصلها عن جسم حساس وعن عالم من المعاني الشخصية. هذا صواب، وسيبقى صحيحًا دومًا. ومع ذلك، ونظرًا إلى متطلبات الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك الشعور بالرضى الرمزي عند الأشخاص، يجب أن تكون هذه الكفاءات محددة ومعترفًا بها بطريقة تقليدية، وكما أشرنا في فصل سابق، فإن الحاجة إلى الاعتراف والتحديد ملحة لدرجة أن الكفاءات والمعارف تشكل اليوم مصدر معظم أشكال الثروة. إن النمط التقليدي للاعتراف بالمعارف ـ الشهادة ـ هو في الوقت ذاته:

- نظام مليء بالعيوب: لا يمتلك الناس كافة شهادة على الرغم من أن كل شخص يعرف شيئًا ما.
- نظام رديء بشكل مريع: الأشخاص الذين يحملون الشهادة نفسها لا يملكون الكفاءات نفسها، بسبب تجاربهم المختلفة خصوصًا.

- وأخيرًا هو نظام غير معياري: ترتبط الشهادات بجامعات أو بدول، ولا يوجد نظام عام للمعادلة بين الشهادات من دول مختلفة.

إن القانون الرسمي للاعتراف بالعلوم لا يمنح تمفصلًا مزدوجًا، ولا أي شكل آخر للتمفصل. ذلك أنّ الشهادات ليست مكونة من عناصر أكثر بساطة قابلة للاستخدام في أي سلسلة عناصر أخرى. إنها عبارة عن مجموعات جزيئيّة لا تتفكك. ولا تشكل مجموعة شهادات وحدة ذات معنى من المستوى الأعلى، لكنها تشكل فقط تجاوزًا إجماليًّا.

وإزاء هذا الوضع، تم تصور نظام أشجار المعارف ووضعه موضع التنفيذ لتطبيق الافتراضان على العلاقة مع المعارف والمهارات [Authier, Lévy, 1992]. فهو يتيح تحديد هوية المجموعات والأفراد ويوجههم بدقة في عالم تتدفق فيه المعارف.

تقترح أشجار المعرفة تطويرًا حقيقيًا للإنحاء على موضوع الإقرار بالمعارف. وليس للجزيئات الأساسية في موضوع الإقرار، أو البراءات، معنًى، في حد ذاتها، ولكن فقط من خلال شعارات هي سلاسل لشهادات (مناهج) تمّ الحصول عليها من الفرد وتمّ إسقاطها على أشجار المعارف في مجتمع ما. إنّ مجموعة الشهادات تفيد في تشكيل كمية غير محدودة لطرق تعلم مختلفة. ويأخذ المنهاج الفردي نفسه معنى وقيمة مختلفين في شجرة هذا المجتمع أو ذاك.

إنّنا نحصل حقًّا على نظام بمفصلين؛ المفصل الأول، بين الشهادات والمناهج الفردية (كما هو بين الصواتم والكلمات)،

والمفصل الثاني، بين المناهج والأشجار: تنبثق الشجرة من مسارات التعلم عند أفراد المجموعة وتهيكلها بالمقابل على شكل شعارات (كما هي الحال بين الكلمات والجمل: الجملة مركبة من كلمات ذات قيمة دلالية غير محددة، وتفعّل بالمقابل معنى الكلمات التي تؤلفها).ويمكن كلّ شهادة على الأرجح - بحظوظ تنقص أو تزيد - أن تندرج في أي منهاج، ويستطيع كلّ منهاج - بحظوظ مختلفة - الاندراج في أيّ شجرة، بحسب مصائر مختلفة. إنّ الشهادة هي الطابع المتحرك لتحديد هوية المعارف. وهذه الآلية النحويّة ذات التمفصل المزدوج هي شرط إمكان المعيرة والتهجير وافتراضان المعرفة المعترف بها.

وكمثل نوع من الصواتم المشيرة إلى المهارة، ترمز الشهادة إلى جُزَيء افتراضي من الكفاءة. فمن الضروري إذًا أن تكون الشهادة مقولبة، ومستقلة عن الأشخاص والأمكنة والمسارات التعليمية. وفي المقابل، يعبر الشعار ضمن الشجرة عن معارف فرد في ظرف معين ويعطي صورة - متفردة دومًا - عن تفعيل كفاءات شخص ما في ظرف ما.

إنّ هذه المقاربة عقلانية وعملية، ذلك أنّها تتيح حل عدد من المسائل المستعجلة والملموسة. ومع هذا، فإنها «سيئة الذكر» للسبب نفسه الذي جعل منها ابتكارًا: فالاعتراف بالكفاءات منفصل تمامًا عن أيّ فرضية خاصة حول ترتيب العلوم. إن مسارات التعلم عند المجموعات التي تختلف من مكان إلى آخر، هي التي أدت إلى

ظهور تصنيفات متنوعة لمعارف يمكن تصورها على شكل أشجار. لقد جرى تحرير شيء ما.

الجدلية والبلاغة، إتمام الافتراضان

حين يرى رجل ما قبل التاريخ غصنًا فإنه يتعرف إليه لذاته. ولكن القصة لا تتوقف عند هذا الحدّ، لأن الإنسان بجدليته يرى الأمر مضاعفًا. إنه ينظر إلى الغصن ويتخيله على شكل عصًا. فالغصن يعني العصا، وهو عصًا افتراضية. إنّها عملية استبدال. إنّ التقنية كلّها مرتكزة على هذه القدرة في تحريف الحقيقي وشطره وتكوينه المتباين. إنّ الكيان الحقيقي، الملتصق بهويته ووظيفته، ينطوي فجأة على وظيفة أخرى وهوية أخرى ويدخل في تركيبات جديدة، وينجرف في عملية التكوين المتباين. فنجد القدرة نفسها على التفسير وابتكار المعنى في اللغة والتقنية وغواية الأعمال اليدوية والقراءة.

وكما توجد جدلية للإشارات وجدلية للأشياء، فإن جدلية الأشخاص بدورها تجبرنا بشكل متبادل على الاندماج في وجهة نظر الآخر، وإعطاء معنى بشكل متبادل للعقود والاتفاقيات والمعاهدات والمواثيق في قواعد الحياة العامة بشكل عام. إننا نخوض في جدلية الاستبدال.

وحينما نضع أنفسنا (افتراضيًّا) موضع الآخر، يجب أن نتكلم عن التعبير الجدلي كعملية فعالة. لقد رأينا سابقًا أنّ التعبير الجدلي هو تنظيم مراسلة: أي تبادل مشترك للأدلة بين الأفراد، وهو أيضًا علاقة بين كيانات تباشر بإضفاء معنى لنفسها بشكل متبادل فورًا.

وعلى النقيض من التقاسم الكبير بين الرموز والأشياء، فإن جدلية الافتراضان ترسي علاقات معنى وارتباط أو إحالة بين كيان ما وأي كيان آخر. ويمكن كل شيء أن يأخذ معنًى، بشكل متناظر، كل إشارة تتعلق بتدوين فيزيائي، وبمادة تعبيرية. وبانجراف الناس في السيرورة الجدلية فإنهم يتضاعفون: فمن جهة يبقون هم أنفسهم، ومن جهة أخرى يصبحون نواقل لشخص آخر. وهكذا، لا يعودون هم أنفسهم على الرغم من أن هويتهم هي الأساس في مقدرتهم على إعطاء معنى. وتوضع الذات والغير في دائرة مغلقة، فيعبر الداخل والخارج إلى نقيضيهما كما في دارة موبيوس.

إنّ السيرورة الجدلية هي أساس الافتراضي، لأنها تفتح دومًا عالمًا ثانيًا بشكل مختلف. وينبثق العالم العام أو الديني من رحم التفاعل بين مواضيع خاصة يقوم الاجتماعي بإنتاجها في المقابل. وينمو الفضاء التقني كتعقيد كسراني للطبيعة. وأخيرًا، فإن عالم الأفكار، الذي هو صورة الصور وموطن النماذج، يصوغ التجربة على وجه، ويعكس الحقيقة على وجه آخر.

إنّ العالم الثاني الذي نتحدّث عنه لا وجود له قبل السيرورة الجدلية، فهو غير «حقيقي» وجامد. إنه يلد ويلد من جديد بدون توقف وهو دائمًا في حالة ولادة ـ ودائمًا كعالم آخر ـ في عملية لانهائية من التضاعف والإحالة والتراسل.

تضاعف العمليات النحويّة درجات الحرية. وعلى الميدان الذي أصبح مرنًا بفضل النحو، تعطي الجدلية الدفع لسلاسل من

التحويلات والعمليات الجذرية للمعنى، فاتحةً الباب على عوالم افتراضية تسكنها البلاغة وتنميها بكل استقلالية.

ولا يتتابع النحو والجدلية والبلاغة إلّا بترتيب عرض منطقي. وتكون متعاقبة، بل حتّى مشدودة مِن البلاغة في مسارات الافتراضان الملموسة.

ويقطّع النحو العناصر، وينظم المقاطع. وتعتمد الجدلية الاستبدالات والتراسلات. وتفصل البلاغة مواضيعها عن كلّ علاقة تركيبية وكلّ مرجعية، لبسط الافتراضي كعالم مستقل. إنّ البلاغة العامة التي نستشهد بها هنا تقوم بتجميع العمليات الإبداعية في عالم الإنسان، سواء على الصعيد اللغوي أو التقني أو العلائقي: اختراع، تأليف، أسلوب، ذاكرة، عمل. ويتموضع الإبداع بمثابة انبثاق أنطولوجي صرف في ما وراء المنفعة أو المعنى أو الحقيقة. ولكن الحركة نفسها التي تحمل هذه الإيجابية تحفر عوامل الجذب والطرق التي تخلي لها الطريق. إن العمل البلاغي الذي يلمس جوهر الافتراضي يطرح أسئلة ويتصرف في التوترات ويقترح غائيات يضعها في الساحة، ويدخلها في السيرورة الحيوية. إنّ الابتكار الأعظم هو ابتكار المسألة، وهو انفتاح الفراغ في قلب الحقيقي.

7

افتـرضـان الـذكـاء وتـكـويـن الـذات

بعد أن درسنا في الفصل السابق عمليات الافترضان، سأذكر في الفصل اللاحق غرضها أو بالأحرى ظهور الغرض من حيث هو إتمام للافترضان. غير أنّني سأصطحب القارئ، قبل ذلك، في رحلة استكشاف افترضان الذكاء، ابتغاء بلوغ الغرض في تدرج منطقي. هناك ثلاثة مواضيع متشابكة في هذا الفصل والفصل اللاحق: مسؤولية المجتمع في الإدراك والانفعالية الشخصية، ومسألة «الفريق المفكر» بحد ذاته، والذكاء الاجتماعي كطوباوية تقنية سياسية. ولا يمكن تبرير تشابك مسألة الغرض مع مسألة الذكاء الجماعي إلّا من خلال المناقشة التي ستلي.

نحن الكائنات الإنسانية لا نفكر أبدًا لوحدنا أو بدون أدوات، إذ تزود المؤسسات، واللغات، وأنظمة الإشارات، وتقنيات التواصل والعرض والتسجيل، نشاطاتِنَا الإدراكية بالمعلومات بشكل عميق: إنّ مجتمعًا متعدد الأجناس بأكمله يفكر بداخلنا. ونتيجةً لهذا، وعلى الرغم من استمراريّة البنى العصبونية الأساسية، يبقى الفكر تاريخيًّا إلى حدّ كبير، إذ هو مؤرّخ المكان ومحدّده، لا في موضوعه فحسب، ولكن أيضًا في إجراءاته وأنماط سير عمله.

وإذا كان الجماعيّ يفكر بداخلنا، فهل يمكننا المضيّ إلى درجة الادعـاء بوجود فكر راهـنـيّ، فعلي للمجموعات الإنسانية؟ هل يمكننا أن نتحدّث عن ذكاء من دون وعي موحد أوعن فكر من دون شخصنة؟ إلى أي درجة تنبغي إعادة تعريف مفاهيم الفكر والنفسانية لتصبح متوافقة مع المجتمعات؟ يقال إننا نتحول إلى عصبونات في قشرة دماغية تشعبية كونية. وعندئذ، يصبح من المُلِحّ إلقاء الضوء على هذه المسائل وإظهار الاختلافات بين أنواع الذكاء الجماعي، وبخاصة تلك التي تفصل المجتمعات الإنسانية عن بيوت النمل وخلايا النحل.

إن تطور الاتصال المدعوم بالحاسوب وبالشبكات الرقمية الكونية يبدو كتحقيق مشروع تمت صياغته بشكل جيد نوعًا ما، ويتمثل في تكوين قصديّ لأشكال جديدة من الذكاء الجماعي، أكثر مرونة وديمقراطية ومبنية على التبادل واحترام الخصوصيات. وبهذا المعنى، نستطيع تعريف الذكاء الجماعي بكونه الذكاء الموزع في كل مكان، ونضفي عليه القيمة باستمرار، ونضعه موضع التنفيذ في الزمن الحقيقي. وباستطاعة هذا المثل الأعلى الجديد أن يحل محل الذكاء الاصطناعيّ كأسطورة تعبوية لتطور التقنيات الرقمية، وأن يتسبب علاوة على ذلك في إعادة توجيه العلوم الإدراكيّة وفلسفة النفس والأنتروبولوجيا نحو مسائل بيئة الذكاء أو اقتصاد الذكاء.

وبتفحص هذه المسائل، سأشرك مفاهيم الافتراضي والفعلي الموضحة في الفصول السابقة، بالإضافة إلى نظرية تكوين الإنسان

بالافتراضان، وسنجد بشكل خاص عمليات الارتقاء إلى الإشكالية، والتهجير، والإشراك، والتكوين المتبادل للباطنية والظاهرية اللتين كانتا مرتبطتين بالافتراضان منذ بداية هذا الكتاب.

وبعد أن ذكّرت بالدور الرئيسي للغات والتقنيات والمؤسسات في تكوين النفسانية الفردية، سأعرض بشكل موجز المواضيع المركزية للإيكولوجيا أو للاقتصاد الإدراكي. وسأحاول في مرحلة ثانية صياغة تعريف للنفسانية يتّفق مع فكرة الفكر الجماعي. وسيدفعني ذلك إلى دراسة المفاهيم الداروينية للذكاء، ثم إلى إكمال هذه المفاهيم بمقاربة عاطفية ملائمة تعكس البعد الداخلي للنفس. أمّا في المرحلة الثالثة، فإنّني سأتحدث عن أشكال الذكاء الجماعي الجديدة المسموح بها في الشبكات الرقمية التفاعلية والآفاق التي تفتحها في سبيل التطور الاجتماعي الإيجابي. وسيكون تحليل آلية عمل الفضاء السيراني مفيدًا لإعداد القسم الأخير، المخصص لتحليل المشغل «الغرض» في تكوين المجموعات الذكية، والسوق الرأسمالي، وصولًا إلى لغز البشرنة. وسنرى في النهاية أن الغرض، مفتاح الذكاء الاجتماعي، وركيزة الافتراضان بامتياز، يتعارض مع الشيء «الحقيقي» وكأنه مثيله الملاصق والمنحرف.

الذكاء الجماعي في الذكاء الشخصي:
اللغات والتقنيات والمؤسسات

أعني بعبارة «الذكاء» المجموعة المناسبة من الاستعدادات الإدراكية، أي إمكانات الشعور والتذكر والتعلم والتخيل والتفكير.

وتُعَدُّ الكائنات البشرية ذكية كلها بقدر ما تمتلك هذه القدرات، إلّا أن ممارسة قدراتها الإدراكية يتضمن قسمًا جماعيًّا أو اجتماعيًّا يُستخفّ به عمومًا.

في البداية، نحن لا نفكر منفردين أبدًا ولكن دومًا في سياق حوار حقيقي أو خيالي مع شخص آخر أو عدة أشخاص. ولا نمارس إمكاناتنا الذهنية العليا إلّا من خلال المشاركة في مجتمعات حية مع تراثها وصراعاتها ومشاريعها. وفي الخلفية أو في الواجهة، تكون هذه المجتمعات موجودة دائمًا في كلّ فكرة من أفكارنا، عن طريق إمدادنا بالمحاورين أو الأدوات الذهنية أو أغراض التفكير. وتشكل المعارف والقيم والأدوات التي تنتقل عبر الثقافة الإطار المغذي والبيئة الفكرية والأخلاقية التي تتطور الأفكار انطلاقًا منها، وتنسج تحولاتها الصغيرة وتنتج أحيانًا تجديدات رئيسة.

لن تستوقفنا الأدوات بشكل خاص في البداية. ومُحال أن نمارس ذكاءنا بشكل مستقل عن الألسنة واللغات وأنظمة الإشارات (المصطلحات العلمية، والرموز البصرية، والأنماط الموسيقية، وأنظمة استعمال الرموز) التي ورثناها عن طريق الثقافة، والتي يستخدمها معنا آلاف أو ملايين الأشخاص الآخرين. تنقل هذه اللغات معها طرقًا لتقطيع العالم وتصنيفه وإدراكه. إنها تحتوي على استعارات هي بمثابة مصافٍ وآلات صغيرة للتفسير، وتنقل كل موروث الأحكام الضمنية وخطوط التفكير المرسومة مسبقًا. إنّ الألسنة واللغات وأنظمة الإشارات تحرض آلياتنا الفكرية:

والمجتمعات التي صاغتها وطورتها ببطء تفكر ضمننا. ويمتلك ذكاؤنا بعدًا جماعيًّا رئيسيًا لأننا كائنات لغوية.

ومن جانب آخر، تدمج الأدوات والظواهر المصطنعة التي تحيط بنا ذاكرة الإنسانية الطويلة. ونحن نلجأ إلى الذكاء الجماعي كلّما استخدمناها، فالمنازل، والسيارات، وأجهزة التلفاز والحواسيب تترجم سلالات بحث واختراعات واكتشافات على مر القرون. إنها تبلور كذلك كنوزًا من التنظيم والتعاون التي تضافرت لإنتاجها فعليًّا.

ولكنّ الأدوات لا تقتصر على الذكريات، إنها أيضًا آلات إدراكية يمكن أن تعمل على ثلاثة مستويات مختلفة: مباشر وغير مباشر ومجازي. أمّا على المستوى المباشر، فإن النظارات، والمجاهر، والمناظير الفلكية، وأجهزة الأشعة السينية، والهواتف، وآلات التصوير، والكاميرات، وأجهزة التلفاز ...إلخ، تعطي بعدًا أوسع وتغيِّر طبيعة إحساساتنا. وأمّا على المستوى غير المباشر، فإن السيارات أو الطائرات أو شبكات الحواسيب (مثلًا) تغير بعمق علاقاتنا مع العالم، وبخاصة علاقاتنا مع المكان والزمان، بحيث يصبح من المستحيل القول إنّها كانت تغيِّر العالم الإنساني أو إنّها غيّرت طريقتنا في الإحساس به. وأخيرًا، فإن الأدوات والأعمال الفنية توفّر لنا كمية من النماذج الملموسة التي يتشاركها المجتمع، والتي نستطيع استنادًا إليها أن ندرك مجازيًّا ظواهر أو مسائل أكثر تجريدًا. وعلى هذه الشاكلة، فكّر أرسطو في السببية منطلقًا من مثل الخزاف. لقد

كان الناس في القرن السابع عشر يتصورون الجسم نوعًا من الآلية، ونحن نبني اليوم نماذج حسابية للإدراك. إنّ الأعمال الفنية تشرك الجهد الهائل للناس وذكاءهم الطويل مع إدراكنا العالم هنا والآن.

يفكر عالم الأشياء والأدوات الذي يحيط بنا ونتشاركه في داخلنا بأشكال مختلفة. وانطلاقًا من ذلك، نشارك من جديد في الذكاء الجماعي الذي أنتجها.

وأخيرًا، فإنّ المؤسسات الاجتماعية والقوانين والقواعد والتقاليد التي تتحكم في علاقاتنا تؤثر بطريقة حاسمة في مجرى أفكارنا. وبالتالي، إذا كان الشخص باحثًا في فيزياء الطاقات العالية، أو كاهنًا، أو مسؤولًا في إدارة حكومية أو مندوبًا ماليًّا، ففي كل حالة من الحالات ستكون هذه الميزة الفكرية أو تلك هي التي تُفضّل على ميزة أخرى. إنّ المجتمع العلمي، أو الكنيسة، أو بيروقراطية الدولة أو البورصة كلّها تجسد أشكالًا مختلفة من الذكاء الاجتماعي بأنماطها الخاصة بالإدراك والتنسيق والتعلم والاستذكار، وتصوغ «قواعد اللعبة» الاجتماعية التي تحكم أنماط التفاعل بين الأفراد، الذكاءَ الجماعي للمجتمعات الإنسانية وكذلك المؤهلات الإدراكية للأشخاص المشاركين فيها.

يمتلك كل إنسان دماغًا خاصًّا نما تقريبًا بحسب الأنموذج نفسه الخاص ببقية أفراد جنسه. إنّ عقولنا فردية ومتشابهة (على الرغم من أنها غير متطابقة) من الناحية البيولوجية. أمّا من الناحية الثقافية، فإنّ ذكاءنا متنوع بدرجة كبيرة وجماعي. وفي الحقيقة، يرتبط البعد

الاجتماعي للذكاء بشكل حميمي باللغات، والتقنيات، والمؤسسات التي تختلف بشكل كبير بحسب الأمكنة والعصور.

الاقتصادات الإدراكية

ننتقل مع المؤسسات و«قواعد اللعبة»، من الأبعاد الجماعية للذكاء الفردي إلى الذكاء الجماعي بحد ذاته. ونستطيع في الحقيقة اعتبار المجموعات الإنسانية كـ«أوساط» بيئية أو اقتصادية تظهر وتموت فيها أنواع من التمثيل أو الأفكار، وتنتشر أو تتراجع وتتنافس أو تعيش في وئام، وتبقى محافظة على نفسها أو تتغير. ونحن لا نتكلم عن الأفكار، أو التمثيلات، أو الرسائل أو الاقتراحات الفردية فحسب، ولكننا نتحدّث عن أنواعها تحديدًا: أي الأجناس الأدبية أو الفنية، وأنماط نظم المعارف، وأنواع الحجج أو «المنطق» المتداولة، وأساليب الرسائل وركائزها. فالمجموعة الإنسانية هي مسرح لاقتصاد إدراكي أو بيئة إدراكية تتطور ضمنها أنواع من التمثيل [Sperber].

إنّ الأشكال الاجتماعية والمؤسسات والتقنيات تجسد البيئة الإدراكية، ذلك أن بعض أنواع الأفكار أو الرسائل أوفر حظًا من غيره في الحدوث، ومن بين كل العوائق المقيدة للذكاء الاجتماعي، تلعب التقانات الفكرية، المتمثلة في أنظمة الاتصال والكتابة والتسجيل ومعالجة المعلومة، دورًا رئيسًا. وفي الواقع، يلاقي بعض أنواع التمثيل صعوبة في البقاء أو حتى في الظهور في أوساط مجردة من بعض التقانات الفكرية، بينما تزدهر في «بيئات إدراكية» أخرى. إن

قوائم الأرقام والجداول والمعارف المنظمة على نمط نظامي مثلًا، لا يمكن نقلها بسهولة في الثقافات الخالية من الكتابة. وفي المقابل، تتيح المجتمعات الشفهية ترميز التمثيلات على شكل روايات يمكن حفظها ونقلها بسهولة أكبر لغياب الركيزة الكتابية. وكمثال أكثر معاصرة، فإن قسمًا متناميًا من المعارف يعبر عنه اليوم بالنماذج الرقمية التفاعلية والمحاكاة، وهذا ما لم نكن نتخيله قبل عهد الحواسيب ذات الواجهات البيانية الحدسية. وتشجع أنماط التمثيلات التي تسود في هذا «الاقتصاد الإدراكي» أو ذاك، أنماطَ معرفة مختلفة (أسطورة، نظرية، محاكاة) بالأساليب ومعايير التقويم و«القيم» الخاصة بها، بحيث يؤدي تغيير التقنيات الفكرية أو وسائل الإعلام، بشكل غير مباشر، إلى تداعيات عميقة على الذكاء الجماعي.

وترتبط البنى التحتية للاتصالات والتقانات الفكرية دومًا بعلاقات وثيقة مع أشكال التنظيم الاقتصادية والسياسية. ونذكر في هذا الموضوع بعض الأمثلة المعروفة جيدًا. إذ ترتبط ولادة الكتابة بأولى الدول البيروقراطية ذات البنية الهرمية، وبأول أشكال الإدارة الاقتصادية المركزية (ضريبة، إدارة مساحات زراعية شاسعة). لقد كان ظهور الأبجدية في اليونان القديمة معاصرًا لظهور النقد والمدينة القديمة وبشكل خاص لابتكار الديمقراطية: وكان باستطاعة أي شخص أن يحيط علمًا بالقوانين ويناقشها، ذلك أن ممارسة القراءة كانت منتشرة. ولقد أتاحت الطباعة الانتشار الواسع للكتب وحتى وجود الصحف، وهي التي تشكل دعامة الرأي العام. ولولاها لما ولدت الديمقراطيات الحديثة. وتمثل الطباعة من جهة أخرى

الصناعة الجماهيرية الأولى. لقد كان التطور التقني ـ العلمي الذي شجعته أحد محركات الثورة الصناعية. ولقد ساهمت الوسائل الإعلامية السمعية ـ البصرية في القرن العشرين (الإذاعة، التلفزيون، الأقراص، الأفلام) في ظهور مجتمع العروض الفنية الذي قلب قواعد اللعبة، سواء في المدينة أم في السوق (الدعاية، اقتصاد المعلومات والاتصالات).

ومع ذلك، من الضروري أن نؤكّد أنّ ظهور التقانات الفكرية أو انتشارها لا يحدد تلقائيًّا هذا النمط أو ذاك من المعرفة أو التنظيم الاجتماعي. فلنميّز إذًا بعناية بين أفعال تسبّب وتحتّم من ناحية، وأفعال تكيّف وتتيح من ناحية أخرى. إنّ التقنيات لا تحتّم، بل تنظم الأشياء. إنها تفتح مجالًا كبيرًا لإمكانات جديدة يتم انتقاء عدد صغير منها فقط أو اصطفاؤه من اللاعبين الاجتماعيين. ولو لم تكن التقنيات هي نفسها تكثيفات للذكاء الجماعي الإنساني، لكان بالإمكان القول: إنّ التقنية تقترح، وإنّ الناس يختارون.

آلات داروينية

ليس مفهوم الذكاء الجماعي مجرد مجاز أو تشابه يفيد في التوضيح، ولكنه مفهوم مترابط. وسنحاول الآن بناء هذا المفهوم. إنّنا نحتاج إلى تعريف لـ«الروح» يكون متوافقًا تمامًا مع شخص جماعي، أي مع ذكاء شخص هو في الوقت نفسه متعدد، ومتباين المنشأ، وموزع، ومتعاون/ متنافس، ومنخرط دومًا في عملية تنظيم ذاتية أو عمليّة استحداث ذاتي. ويستبعد مجموع هذه الشروط تلقائيًّا النماذج

الحسابية أو المعلوماتية من نمط «آلة تورنغ»(*) التي لا تتمتع بخاصية الخلق الذاتي.

وفي المقابل، تبدو النماذج المستوحاة من علم الأحياء أنها الأفضل ترشيحًا، وبخاصة المقاربة «الداروينية». وبحسب التعريف، فإن المبادئ «الداروينية» تنطبق على السكان. إنها تعتمد على مولد تغيير أو تجديد: طفرات وراثية، استخدام وصلة عصبونية جديدة، اختراعات، استحداث مؤسسة أو منتجات ...إلخ. تقوم الآلة الداروينية ـ وهي المرتبطة ببيئتها ـ بانتقاء بعض الأشياء الجديدة التي يطرحها المولّد. ويكون خيارها مقيدًا بشكل خاص بالقدرة على الحياة والتكاثر عند الأفراد أو السكان الفرعيين الحائزين على الطبيعة الجديدة. ولقد برهنت الأنظمة الداروينية على قدرتها على التعلم غير الموجّه أو قدرة الخلق الذاتي المستمر (وهذا الأمر يعادل هنا نظرية الروح من وجهة نظر ما). إن الآلات الداروينية تجرُّ بيئتها

(*) آلة تورنغ (machine de Turing): هي نموذج نظري بسيط يحاكي طريقة عمل الحاسوب. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى عالم الرياضيات الإنكليزي آلان تورنغ (Alan Turing) الذي أوجد هذا النموذج سنة 1936م. وهذا يعطي النموذج تعريفًا رياضيًا دقيقًا لمصطلح الخوارزمية (Algorithme)، وتكمن أهميته في بساطته مقارنة بجهاز الحاسوب المعقد، وبالرغم من ذلك فهو قادر على تنفيذ كل خوارزمية قابلة للتنفيذ بواسطة أي حاسوب متطور. ولهذا السبب استعملت آلة تورنغ في مجال دراسة قدرة الحاسوب والعمليات التي يمكنه تنفيذها، وهو ما يسمى علم قابلية الحساب. يعتبر نموذج آلة تورنغ نموذجًا رياضيًا بسيطًا للحاسوب وينمذج المقدرة الحسابية لحاسوب ذي وظائف عمومية وهو أيضًا من أهم اللغات الصورية إذ يقبل أوسع مجموعة منها وهي اللغات القابلة للعد عموديًا والتي يمكن توليدها بنماذج قواعدية من النوع صفر.

معها على دروب تاريخ غير قابل للعكس من خلال جدلية التبدلات، والانتقاءات ونقل العناصر المنتقاة. وتجسد الآلات الداروينية على طريقتها ذاكرة هذا التاريخ. وتنطبق مبادئ الأنظمة الداروينية في آن واحد على بيئة الكائنات الحية، ولدى المجموعات الإنسانية التي تعتبر أوساطًا لنمو التمثيلات، وفي اقتصاد السوق (مجموعات منتجي البضائع ومستهلكيها)، وعلى النفسانية الفردية من حيث هي مجتمع من الأفكار والعناصر الإدراكية. وتنطبق على عمل الدماغ الذي يُفهم بحسب مبادئ الداروينية العصبونية. ونضيف أن الأنظمة القابلة للتعلم غير الموجه يمكن أن تحاكى مع بيئتها بالحاسوب، كالخوارزميات الوراثية ومختلف أنظمة «الحياة الاصطناعيّة» وتجعلنا نتخيل أن البرنامج المعلوماتي، المرتبط بشكل يُعاشُ مع الوسط التقاني والإنساني في الفضاء السيبراني، بإمكانه قريبًا أن يمثل آخر الأنظمة الداروينية القادرة على التعلم والخلق الذاتي.

ويزداد ذكاء الآلة الداروينية حينما تعمل بشكل كسراني على عدة درجات أو مستويات دمج متشابكة. ويمكن اعتبار السوق مثلًا آلة داروينية، لكنه «ذكي» لدرجة أن المؤسسات والمستهلكين الذين يعثون فيه الحياة هم بدورهم آلات داروينية (منظمات قابلة للتعلم، جمعيات المستهلكين). إنّ الدماغ ناجم في آن واحد عن عملية داروينية على صعيد التطور الحيوي وعلى صعيد التعلم الفردي. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه يتضمن عدة أنماط من «المجموعات التي تتعلم» بمستويات مختلفة: مجموعات خلايا عصبونية، وخرائط واسعة لمناطق حسية، وأنظمة ضبط شاملة ...إلخ [Edelman, 1992].

الأبعاد الأربعة للانفعالية

بالرغم من أنّ النظام الداروني هو الشرط الضروري لنكون روحًا، فإنّه شرط غير كافٍ برأينا. هل القصدية أو واقع اتخاذ الكيانات الخارجية للروح كمرجع هو ما يثير مشكلة ما، كما هو الشأن في المناظرات التي يكون موضوعها مع ذكاء الحواسيب أو ضده؟ الجواب هو: لا، لأن الآلات الداروينية لا تعمل بأيّ حال في دارة مغلقة، فهي بحسب التعريف مرتبطة ببيئة. وتكمن طبيعتها في ترجمة الآخر في الذات، أو في دمج تاريخ علاقاتها مع بيئتها في تنظيمها الذاتي. وفي المقابل، لا يوجد شيء في التعريف العام للآلات الداروينية يتضمن بالضرورة التجربة الشخصية، والبعد الداخلي للإحساس، أي الانفعالية في نهاية المطاف.

ويجب أن نميز بعناية بين الانفعالية والوعي، فيمكن أن تكون الروح غير واعية، مثل روح بعض الحيوانات، والقسم الأكبر من الروح الإنسانية، أو «الأرواح» التي تنبثق من المجموعات الذكية كما سنرى لاحقًا. أما بالنسبة إلى الانفعالية التي قد تكون مشوشة، وغير واعية، ومتعددة، ومتباينة المنشأ، فإنها تشكل ـ خلافًا للوعي ـ بعدًا ضروريًا للنفسانية، بل ربما جوهرها. وبدون الانفعالية، يعود النظام المعنيّ إلى حالة عدم التأثر والظاهرية والتبعثر الأنطولوجي للآلية. وينبغي أن تكون الروح عاطفية من دون أن تكون واعية بالضرورة. إن الوعي هو نتاج الانتقاء والخطية والإظهار الجزئي لعاطفية يدين لها بكل شيء.

ولا يدخل في اعتبارنا أن نقرّر ما هو الشيء المتعلق بالنفسانية أو غير المتعلق بها، وإنّما يعنينا إسناد تعريف للنفسانية قابل للتطبيق على الروح الإنسانية الفردية أو على الذكاء الجماعي على السواء: أي إسناد مفهوم للروح يتوافق تمامًا مع الشخص الجماعي.

يمكن تحليل النفسانية الشاملة، أي القادرة على الانفعالية، بحسب أربعة أبعاد إضافية: الطوبولوجيا، وعلم العلامات(*)، والأكسيولوجيا، والطاقوية. لقد ذكرت سابقًا هذه الأبعاد الأربعة في الفصل المخصص لافتراضان الاقتصاد وسأتناولها الآن بالشرح التفصيلي.

1ـ الطوبولوجيا: تنبني النفسانية في كل لحظة على قابلية الوصل وأنظمة القرب أو «الفضاء» النوعي: وصلات، روابط، طرق، أبواب، مفاتيح، مصافٍ، مشاهد جاذبة. وطوبولوجيا النفسانية في حالة تبدل مستمر، وبعض المناطق أكثر حركة والأخرى أكثر تجمّدًا، وبعضها أكثر كثافة وبعضها الآخر رخوٌ.

2ـ علم العلامات: تشغل أعداد هائلة ومتبدلة من العروض والصور والإشارات والرسائل من الأشكال والمواد (الصوتية، والبصرية، والحسية، والحسية العميقة، والبيانية) كافة،

(*) علم العلامات أو السيميوطيقا (Sémiotique): علم يدرس أنساق العلامات والأدلة والرموز، ما كان منها طبيعيًا أو صناعيًا. وتُعدّ اللسانيات جزءًا من السيميائيات التي تدرس العلامات أوالأدلة اللغوية وغير اللغوية، وتنفرد اللسانيات بكونها لا تدرس سوى الأدلة أوالعلامات اللغوية. ومن الروّاد المُؤسّسين لهذا العلم، فردينان دي سوسير (Ferdinand de Saussure) وتشارلز ساندرز بيرس (Charles Sanders Peirce).

فضاءَ الوصلات. وتبدّل حشود الإشارات مشهد عوامل الجذب النفسية بالتنقل في الدروب وبشغل مناطق الطوبولوجيا، ولهذا السبب فإن الإشارات أو مجموعات الإشارات تمكن تسميتها أيضًا بالعوامل. وفي المقابل، تؤثر تحولات قابلية الوصل في مجموعات الرموز والصور. إنّ الطوبولوجيا في حدّ ذاتها هي مجموع الوصلات أو العلاقات المتمايزة نوعيًّا بين الرموز أو الرسائل، أو العوامل.

3- الأكسيولوجيا: ترتبط عناصر تمثيل الفضاء النفساني ومناطقه بـ«قيم» إيجابية أو سلبية بحسب «أنظمة القياس» المختلفة. وتحدد هذه القيم انتحاءات، وتجاذبات، وتنافرات بين صور، كما تحدد استقطابات بين مناطق أو مجموعة إشارات. وتكون القيم بطبيعتها متحركة ومتبدلة بالرغم من أن بعضها يمكن أن يبقى ثابتًا.

4- الطاقويّة: يمكن اللاانتحاءات أو القيم المرتبطة بالصور أن تكون قوية أو ضعيفة. فقد تتمكن حركة مجموعة تمثيلية من التغلب على بعض الحواجز الطوبولوجية (توسيع بعض الروابط، خلق غيرها، تغيير مشهد عوامل الجذب) أو البقاء من دون ذلك بسبب نقص «القوة». وبهذا الشكل تتم تغذية مجمل الوظيفة النفسانية ويتمّ إحيازها بواسطة اقتصاد «طاقوي»: انتقال أو تجميد القوى، تثبيت أو تحريك القيم، انتشار أو تجميد الطاقة، الاستثمار أو نزع الاستثمار من التمثيليات، والوصلات ...إلخ.

يتضح من النموذج الذي رسمنا خطوطه العريضة أنّ آلية العمل النفسانية متوازية وموزعة أكثر من كونها تسلسلية وخطية. ويمكن تعريف التأثر الأولي أو العاطفة على أنها عملية أو حدث نفسي يدخل فيها على الأقل أحد الأبعاد الأربعة التي ذكرناها للتو: الطوبولوجيا، وعلم العلامات، والأكسيولوجيا، والطاقويّة. ولكن، لكون هذه الأبعاد الأربعة كامنة بصورة مُحايِثة، ولكون العاطفة تغيّرًا في الروح وتفاضُلًا في الحياة النفسية بشكل عام، فإنّ الحياة النفسية تبدو في المقابل تيارًا متدفّقًا من العواطف.

إنّنا نؤكد أن هذا النموذج يتفق في الوقت نفسه مع آخر معطيات علم النفس الإدراكي (وبخاصة في ما يتعلق بالتنظيم «الدلالي» للذاكرة الطويلة الأمد)، ومع الأبحاث الرئيسية في التحليل النفسي بل في التحليل الانفصامي، من دون نقض التجربة التأملية الباطنية أو الفينومينولوجيا.

وهو يتّفق أيضًا مع المقاربة الداروينية، لأن أشكال الفضاء النفسي المجرد ذي الأبعاد الأربعة تتغير باستمرار بواردات «خارجية» يعاد توزيعها بالديناميات الخاصة بالوسط النفسي. ويمكن أن نطابق هذه التحولات المتواصلة مع تأثيرات «مولّد التنوع» في الآلة الداروينية. و«ينتقي» الجهاز النفسي حينما يرتبط ببيئته، ديناميات عاطفية قابلة للحياة خلال قصة أو طريق تطوري غير قابل للعكس: تشكيل «الشخصية» الفردية أو الجماعية، والتعلم، والاختراعات، وبطلان اللغات، والاستثمارات أو سحب الاستثمارات العاطفية.

إنّ النفسانية تشكّل باطنية. وليست طوبولوجيتها وعاءً حياديًا أو نظامًا بحتًا للإحداثيات حقًّا، ولكنها على العكس فضاء نوعي، متمايز، تتّصل أجزاؤه بعضها ببعض، مُشكّلةً أشكالًا أو ترتيبات. وبالإضافة إلى ذلك، تقوم الإشارات والرسائل، بصياغة داخلية الروح عند انتقالها واحتلالها الفضاء، وإحالة كل واحدة إلى الأخرى، وعند تفعيلها الوصل. وتتحدد القيم بدورها في ما بينها، وتشكل نظامًا، وأخيرًا لا تترك الطاقة التي تغذي الروح مكانًا إلّا لتشْغَلَ آخر مُساهمة بذلك في نوع من التنسيق والتبعية المشتركة والوحدة ضمن النفسانية.

غير أنّ وحدة النفسانية إنّما هي وحدة وفرة كبيرة، وليست داخليتها «العاطفية» شيئًا مغلقًا. وكما يقول جيل دولوز، الداخل هو ثنية من الخارج. لقد رأينا أن النفسانيات هي أيضًا آلات داروينية، أي أنها تتماثل مع عملية تحول ـ تترجم الآخر في الذات، تلك الذات التي لا تكون مغلقة بشكل نهائي، ولكنها تكون دومًا في حالة اختلال توازن، بوضعية انفتاح واستقبال وتحول. ذاتٌ خاصيّتها الأساسية قد تكون النوعية الفردية لعملية استيعاب الآخر والتكوين المتباين. ويبدأ هذا الانفتاح بالإحساس المجرد ويمر بالتعلم والحوار ويبلغ الذروة بالمصير: عملية وهمية أو انتقال إلى ذاتية أخرى.

والنموذج الذي اقترحناه للنفسانية يمكن تطبيقه على نصّ أو فيلم أو رسالة أو عمل ما.

بالفعل، لدينا في حالة الرسالة المركّبة:

- مجموعة من الإشارات أو مكونات الرسالة.
- وصلات، وإحالات، وأصداء بين أجزاء الرسالة.
- توزيع للقيم الإيجابية أو السلبية على العناصر والمناطق والروابط بالإضافة إلى قيمة ناشئة من مجموعها.
- وأخيرًا، طاقة مستثمرة بشكل مختلف في بعض الروابط وبعض القيم: «خطوط قوّة» وبنية.

تعمل الرسالة بأكملها، إذا ما التحمنا بمعناها، كتشكيلة دينامية، أو كنوع من مجال قوة غير مستقرة (يمكن تفسيرها بأشكال مختلفة)، وتحيل بشكل أكيد إلى خارجها لكي تعمل: رسائل أخرى، ومرجعيات «حقيقية»، وتفسيرات.

إنّ الرسالة نفسها عامل عاطفي لروح الذي يفسرها. وإذا كان النص، أو الرسالة أو العمل، يعمل كالروح، فهذا يعني أنه قد تمت قراءته وتُرجم وفُهم وأدخل واعتُبر مادة عقلية وعاطفية. لقد قام شخص ما بتحويل سلسلة من الأحداث الفيزيائية إلى رسالة ذات معنى، وكما أن الملك ميداس(*) لا يلمس شيئًا إلّا حوّله ذهبًا، فإنّ الروح لا تستطيع أبدًا إدراك أيّ شيء من دون تحويله حركات وثنيات

(*) ميداس (Midas): ملك فريجيا (Phrygia) وأحد أبطال الأساطير الإغريقيّة. تقول الأسطورة إنّه أسر سيلينوس (Silenus) مرافق الإله ديونيسوس (Dionysus)، غير أنّه أحسن معاملته، فكافأه ديونيسوس على ذلك بأن أبدى استعداده لتحقيق أيّ أمنية تصبو إليها نفسه. فتمنّى أن يتحوّل كلّ ما يلمسه ذهبًا، فتمّ له ما أراد، حتى إذا استحال طعامه ذهبًا كاد يقضي نحبه جوعًا، وعندها استبدّ به الندم وسأل ديونيسوس أن يعيده سيرته الأولى.

لنسيج ملون وغني: أي إلى عواطف. إنّ ما قلناه في هذا الموضع عن الرسائل ينطبق تمامًا وبالطريقة نفسها على كل عناصر تجربتنا وعلى العالم نفسه. ويشكل العالم ـ عالمنا الإنساني ـ بالنسبة إلينا، حقلًا إشكاليًّا وتشكيلة دينامية ونصًّا تشعبيًّا ضخمًا بحالة تحول مستمر، وتجتازه توترات؛ وهو رمادي وقليل الاستخدام في بعض المناطق، وكثير الاستخدام ومفصل لدرجة الترف في مناطق أخرى. وليست التقاربات الجغرافية والارتباطات السببية التقليدية سوى مجموعة فرعية صغيرة لروابط ذات معنى وتشابه وسريان عاطفي يهيكل عالمنا الشخصي. إنّ العالم الفيزيائي هو حالة خاصة من العالم الشخصي الذي يحيط به ويؤثر فيه ويدعمه. وما الفرد إلّا عالمه، شرطَ أن يكون المقصود بهذه العبارة كل ما تشمله العاطفة.

لا يكفي إذًا أن نقول إنّ النفسانية منفتحة على الخارج، فالنفسانية ليست سوى الخارج، لكنه خارج غير مصفّى، ومصاب بالتوتر ومركّب، وعابر للمادة، وتُحركه الانفعاليّة. إنّ الفرد هو عالم منغمس في المعنى والعاطفة.

إنّ الصورة التي أسندناها للتو إلى الذكاء الحي أو النفسانية مطابقة تمامًا لصورة الافتراضي. فالشخص العاطفي بطبيعته، وعلى الرغم من أنه موصول دومًا بجسمه، ينتشر خارج الفضاء الفيزيائي. إنه موجود مهجَّر ومهجِّر، أي أنه ينمو إلى ما وراء الـ«هنا». تُحوّل النفسانية ببنيتها الخارج إلى داخل (علمًا بأن الداخل هو طية من الخارج) والعكس بالعكس، لأن العالم المحسوس منغمس دومًا في

عنصر العاطفة. وأخيرًا، إنّ المشهد النفسي ـ كما حاولت جاهدًا أن أصفه ـ هو من نمط التشكيلة الدينامية. إنه الحياة نفسها لعقدة قوّى وقيود وأهداف، وهو القسم الحميمي لمجموعة توترات، وصورة مجال غير مستقر لعوامل جذب متباينة، وقائم بتحديد كل وضع إشكالي مفتوح.

إنّ العنصر النفسي يمنح مثالًا مناسبًا عن الافتراضي. كيف يتفعل هذا الافتراضي؟ بواسطة العواطف. تشير العواطف هنا إلى الأفعال النفسية مهما كانت طبيعتها. وتتعلق نوعية العاطفة بالوسط الذهني الذي يعطيها معنى ويسهم في تحديدها. ونتيجة للانخراط المتبادل بين الذاتيّة وعالمها، فإن الصفات العاطفية تتعلق أيضًا بصفات البيئة، وهي وسط خارجي لا يكفّ عن منح أغراض جديدة، وأشكال جديدة عملية أو جمالية لاستثمارها. وعلى هذا النحو، لا وجود مبدئيًا لقيود تعوق ظهور أنماط عواطف جديدة أكثر من وجود حدود لإنتاج أغراض أو مشاهد جديدة. بل يمكننا أن نتكلم هنا حتى عن ابتكارية عاطفية. إنّ التصنيف العادي للعواطف (خوف، حبّ ...إلخ) لا يمثل إذًا سوى قائمة ضيقة ومبسطة جدًّا لأنماط العواطف.

مجتمعات مفكرة

نستطيع الآن أن نفهم أكثر لماذا يتمتع الذكاء ببعد جماعي: لأن اللغات والأعمال الفنية والمؤسسات الاجتماعية ليست الوحيدة التي تفكر داخلنا، ولكن مجمل العالم الإنساني، بخطوط رغباته،

واستقطاباته العاطفية، وآلاته الذهنية الهجينة، ومشاهد معانيه المزدانة بالصور. إن التأثير في محيطنا، ولو قليلًا، حتى على نمط ندعي أنه تقني صرف أو مادي أو فيزيائي، يرتقي إلى إقامة العالم المشترك الذي يفكر بشكل مختلف داخل كل واحد منّا، وإلى إفراز الميزة الشخصية بشكل غير مباشر، وإلى العمل في العاطفي. ماذا نقول إذًا عن إنتاج الرسائل أو العلاقات؟ هذه هي عقدة الأخلاق: نحن مليثون بالحياة، نعمل ونفكر، ونحوك نسيج الحياة عند الآخرين.

وباستطاعتنا أن نفهم أيضًا لماذا تسمى مجموعات إنسانية بحد ذاتها ذكيّةً. ذلك أنّ النفسانية هي منذ البدء جماعية بالتعريف: إنها مجموعة من الإشارات ـ «العوامل» ـ في حالة تفاعلية، وهي محملة بالقيم، وتستثمر قدرتها في الشبكات النقالة والمشاهد المتغيرة.

إنّ المجموعات الإنسانية نوع من النفسانيات العُظمى، لا لأن الأشخاص يشعرون بها ويستثمرونها عاطفيًّا فحسب، لكن لأنها تستطيع أن تتنمذج بشكل مناسب بطوبولوجيا وإشارات وقيم وطاقة بشكل متبادل. إنّ العواطف تنتاب أشخاصًا عظامًا اجتماعيين، وإن كان ذلك بدون وعي خطي. فالعملية العاطفية الكبيرة تنتج الحياة الاجتماعية. إن دور الانتقاء والعرض التسلسلي الذي يلعبه الوعي عند الأشخاص يملأ بطريقة ما المجموعات ببنًى سياسية أو دينية أو إعلامية، وهي تقوم بالمقابل بتملك الأفراد. ولكن المقارنة بين الخدمات المقدمة إلى الفرد من خلال

وعيه وخدمات وسائل الإعلام المركزية أو الخدمات التي يقدمها الناطقون الرسميون إلى المجموعات لا تكون دومًا لمصلحة هذه الأخيرة.

إنّه من المؤكد كون الذكاء كسرانيًّا، أي أنه يتكاثر بطريقة متماثلة على مستويات أهمية مختلفة: مجتمعات ضخمة، ونفسانيات عابرة للأفراد في مجموعات صغيرة، وأفراد، ومكونات أصغر من الأفراد (مناطق في الدماغ، «مجمعات» لاواعية)، وترتيبات معترضة بين مكونات أصغر من الأفراد لأشخاص مختلفين (علاقات جنسية، عُصابات تكميلية...). وكل عقدة أو منطقة من القشرة الدماغية التشعبية الجماعية تحتوي بدورها على نفسانية حية، هي عبارة عن نص تشعبي دينامي تجتازه توترات وطاقات عاطفية مليئة بالانتحاءات ومضطربة بالصراعات. ومع ذلك، يُظهِرُ الشخص نغمة نفسية وشدة عاطفية فريدتين على وجه الإطلاق، بسبب ارتباطه بجسمه الفاني وبوعيه.

وفي المقابل، توجد صفة منتشرة بدرجات مختلفة في كل أنواع الأرواح، وتمثلها المجتمعات الإنسانية (وليس الأفراد) بشكل أفضل من غيرها: وتكمن في عكس كل ما في الروح الجماعية بشكل مختلف كلَّ مرة، وفي كل جزء من أجزائها. إنّ الأنظمة الذكية هي «تصويرية مجسمة»، والمجموعات الإنسانية هي الأكثر تصويرًا تجسيميًّا للأنظمة الذكية. ويجسد كل شخص اختيارًا خاصًّا، ونسخة خاصة، ورؤية خاصة للعالم المشترك أو النفسانية الشاملة،

مثل كائنات لايبنيتز (Leibniz) الدقيقة الأحادية الخلية، أو الفرص الحالية لوايتهيد (Whitehead).

المجموعات الإنسانية ومجتمعات الحشرات

يُذكّر مفهوم الذكاء الجماعي بشكل قوي بسير عمل مجتمعات الحشرات: النحل، والنمل، والأَرَض. ومع ذلك تختلف المجتمعات الإنسانية بشكل كبير عن مستعمرات الأرضات(*).

إنّ الفرق الأول الذي تنجم عنه كل الفروق الأخرى، هو أن الذكاء الجماعي يفكر داخلنا. أمّا النملة فهي جزء شبه مُعْتم، ونكاد لا تكون تصويرية مجسمة، وهي جزء غير واعٍ في مستعمرة النمل الذكية. إنّنا نستطيع أن نتمتع فرديًا بالذكاء الجماعي الذي يزيد ذكاءنا الخاص أو يغيّر منه. ويحتوي كل واحد منّا ذكاء المجموعة بطريقته الخاصة أو يعكسه. أمّا النملة، في مقابل ذلك، فليس لها سوى تمتع ضئيل بالذكاء الاجتماعي أو رؤية ضئيلة منه. إنّها لا تحصّل منه تحسّنًا فكريًا، ولا تشارك في الذكاء الجماعي إلّا بشكل أعمى مستفيدة ومطيعة.

يعود بنا ذلك إلى القول بشكل عام إنّ الإنسان ذكي (على الأغلب)، أمّا النملة فغبية قياسًا على الإنسان. إنّ النملة لا تحصل

(*) مستعمرات الأَرَضات (Termitières): بيوت النمل الأبيض، ومفرد الأَرَضات أَرَضة، والأَرَض جنس حشرات شبيهة بالنمل، تقضي حياتها في الدفاع عن مستعمراتها، وبالرغم من اختلاف وظائفها ورتبها وأدوارها داخل البيت الواحد، فإنّها تسعى دومًا إلى الهدف ذاته وهو البقاء والاستمرار.

فحسب على قدر من الذكاء الاجتماعي أقل ممّا هو كائن عند الإنسان، ولكنها أيضًا لا تساهم فيه إلّا في حدود ضيقة. يستطيع الرجل أو المرأة، في إطار ثقافة معينة، أن يتعلما ويتخيلا ويبتكرا ويطورا بالنتيجة، ولو بشكل متواضع جدًّا، اللغات والتقنيات والعلاقات الاجتماعية في بيئتهما، وهذا ما تعجز النملة عن فعله - فهي خاضعة بشكل تام إلى برمجة وراثية. إنّ المجتمع حصرًا في عالم الحشرات، هو الذي يحل المشاكل الأصلية، أمّا عند البشر، فإن الأفراد هم غالبًا أكثر إبداعية من بعض المجموعات كالحشود أو البيروقراطيات الجامدة. إن ذكاء المجتمعات الإنسانية متنوع وفي أفضل الأحوال تطوريّ بفضل طبيعة الأفراد الذين يكوّنونها، والارتباطات الحرة أو التعاقدية التي ينسجونها غالبًا. وفي المقابل، وفي عالم جنس معين من النمل، فإن آلية عمل بيت النمل جامدة.

تبلور وضعية الفرد في هذا النمط من المجتمع أو ذاك مجموع الفوارق بينها وتلخصه. إن مكان كل نملة ودورها ثابتان بشكل نهائي. وضمن جنس معين، تبقى أنماط السلوك أو الاختلافات في الشكل (الملكات، العاملات، الجنود) على ما هي عليه. وتنتظم النملات (مثل النحلات والأَرَضات) ضمن طبقات، وتكون نملات الطبقة نفسها قابلة للتبادل. وفي المقابل، لا تكفّ المجتمعات الإنسانية عن ابتكار طبقات جديدة ويعبر الأفراد من طبقة إلى أخرى، وإنه لمن المستحيل حقًّا أن نختزل شخصًا بانتمائه إلى طبقة (أو إلى مجموعة طبقات) لأن كل فرد إنساني هو حالة خاصة. وليس الأشخاص - بطرق تعليمهم الخاصة وتجسيدهم عوالم عاطفية

وفرضيات تحول اجتماعي (حتى لو كانت ضئيلة) مختلفة ـ قابلين للتبادل. ويساهم كل فرد منهم بطريقة مختلفة وأسلوب خلاق، في حياة الذكاء الجماعي الذي ينيرهم بالمقابل، أمّا النملة فتطيع بشكل أعمى الدور الذي تمليه عليها طبقتها ضمن آلية غير واعية واسعة تتجاوزها بشكل مطلق.

لقد حاولت بعض الحضارات والأنظمة السياسية أن تقارب بين الذكاء الاجتماعي الإنساني والذكاء في بيوت النمل، وعاملت الأشخاص كأفراد ينتمون إلى فئة، وحملتنا على الاعتقاد بأن هذا الاختزال للإنسان إلى حشرة كان ممكنًا أو مرغوبًا. أمّا موقفنا الفلسفي والأخلاقي والسياسي فواضح تمامًا: إن التقدم الإنساني نحو تكوين أشكال جديدة للذكاء الجماعي يتعارض بشكل تام مع قطب بيت النمل. وعلى النقيض ممّا سبق، ينبغي على هذا التقدم أن يعمّق انفتاح الوعي الفردي على سير عمل الذكاء الاجتماعي وتحسين الاندماج وتثمين التميزات الإبداعية للأفراد والمجموعات الإنسانية الصغيرة في العمليات الإدراكية والعاطفية للذكاء الجماعي. وليس هذا التقدم مضمونًا أبدًا، بل هو مهدّد دومًا بالتراجع. ولا يتعلق الأمر بقانون للتاريخ، ولكن بمشروع يتم نقله وإغناؤه وإعادة تفسيره مع كل جيل، وهو معرض ـ لسوء الحظ ـ للتصلب والنسيان.

تجسيد السياق المشترك

ربما تمر إعادة التفعيل المعاصرة لهذا المشروع بالاستعمال الصائب لتقنيات الاتصال ذات الركيزة الرقمية. إذ شهدت التقانات

الفكرية ووسائل الاتصال في نهاية القرن العشرين تحولات واسعة النطاق وجذرية. وبالتالي، فإن البيئات الإدراكية هي في طور إعادة التنظيم السريع وغير القابل للعكس. غير أنّه لا ينبغي لشراسة تقويض الاستقرار الثقافي أن تجعلنا نخشى تمييز الأشكال البازغة الأكثر إيجابية من الناحية الاجتماعية وتشجيع تطويرها. ومن بين الآثار الرئيسية للتحول الجاري، تظهر آلية اتصال جديدة ضمن جماعات واسعة جدًّا موجودة في اللامكان نسميها «اتصال الجميع مع الجميع»، وباستطاعتنا تجربتها على الإنترنت، في لوحات الإعلانات، والمؤتمرات والندوات الإلكترونية، وفي أنظمة العمل أو التعلم التعاوني، وبرمجيات المجموعات، والعوالم الافتراضية وشجرات المعارف.

وفي الواقع، يتيح الفضاء السيبراني في طور التشكل تواصلًا غير إعلامي على نطاق واسع، وهذا ما يشكل بنظرنا تقدمًا حاسمًا باتجاه أشكال جديدة للذكاء الجماعي أكثر تطورًا.

وكما نعلم، ترسي وسائل الإعلام التقليدية (علاقة فرد ـ الجميع) عزلة تامة بين مراكز الإرسال والتلقي الخاملة التي انعزل بعضها عن بعض. وتحقق الرسائل التي يبثها المركز نوعًا من الوحدة الإدراكية عند الجماعة بإرسائها سياقًا مشتركًا. ومع ذلك، يكون هذا السياق مفروضًا، ويدعو للارتقاء، ولا ينتج عن نشاط المشاركين، ولا تمكن مناقشته بشكل أفقي بين المتلقّين. ويتيح الهاتف (علاقة فرد ـ فرد) الاتصال المتبادل، ولكنه لا يعطي رؤية شاملة لما يحدث في مجموع

الشبكة، كما لا يتيح بناء سياق مشترك. أما في الفضاء السيبراني، في مقابل ذلك، فيكون كل فرد مرسلًا كامنًا ومتلقيًا كامنًا في فضاء متمايز نوعيًا، وغير جامد، يرتّبه المشاركون، وهو قابل للتفحص. ولا نجتمع هنا مع الأشخاص استنادًا إلى أسمائهم أو تموضعهم الجغرافي أو مكانتهم الاجتماعية بشكل رئيسي، ولكن استنادًا إلى مراكز اهتماماتهم حول مشهد مشترك للمعنى أو المعرفة.

ويمنح الفضاء السيبراني أدوات بناء تعاوني لسياق مشترك عند مجموعات عديدة ومبعثرة جغرافيًّا بحسب ترتيبات لا زالت بدائية ولكنها تُصقل سنة بعد سنة. وينتشر الاتصال هنا بكل بعده التداوليّ. ولا يتعلق الأمر ببث رسائل أو نقلها فحسب، ولكن بتفاعل ضمن وضع يساهم كل واحد في تعديله أو ترسيخه، وبتفاوض على المعاني، وعملية اعتراف متبادل للأفراد والجماعات عن طريق نشاط الاتصال. إنّ النقطة الرئيسية هنا هي التجسيد الجزئي لعالم المعاني الافتراضي الذي يتقاسمه ويعيد تفسيره المشاركون ضمن ترتيبات الاتصال (الكل ـ الكل). وهذا التجسيد الدينامي لسياق جماعي هو مشغل للذكاء الجماعي، إنه نوع من الرابط الحي الذي يعمل بمثابة الذاكرة أو الوعي المشترك. وتحيل الذاتيّة الحية إلى تجسيد دينامي. ويتطلّب الغرض المشترك جدليًّا شخصًا جماعيًّا.

سنعطي بعض الأمثلة على تلك السيرورة. فالويب، كما وصفناه في الفصل الثالث، هو بساط من المعنى حاكه ملايين الأشخاص، ويعاد وضعه على النول دومًا. ويؤدّي الترقيع اليومي لملايين العوالم

الشخصية إلى ظهور ذاكرة دينامية، ومشتركة «مجسّدة»، وقابلة للتصفح. ونكتشف أيضًا مشاهد دلالية ناجمة عن النشاط الجماعي في الـ(*Multi-users dungeons and dragons*) MUDS، وهي عبارة عن ألعاب للقيام بأدوار على شكل عوالم افتراضية لغوية، يُعِدّها، في وقت حقيقي، مئاتٌ أو آلاف من الشباب في مختلف أنحاء العالم. ونجد أيضًا، على نمط أقل تعقيدًا، ذواكر مشتركة تُفرَزُ جماعيًا في المؤتمرات الإلكترونية ولوحات الإعلانات، أو **المجموعات الأخبارية** على الإنترنت، حيث ترسم قائمتها المتغيرة خريطة دينامية لمصالح المجتمعات التي تعج بالحركة. وتشكل هذه الترتيبات في أحسن الأحوال نوعًا من الموسوعات الحية. وتتجنب الأجوبة عن **الأسئلة التي تتكرر** (*frequently asked questions*) ـ (FAQ) التكرار في بعض الندوات الإلكترونية، وتتيح لكل شخص أن يشارك في الحوار مع الحد الأدنى من المعارف الأساسية في الموضوع ذي الصلة. إنّنا ندفع الأفراد بهذا الشكل إلى المشاركة في الذكاء الجماعي بأنسب طريقة وأكثرها وثاقةً.

ونجد هذه المشاهد الدلالية موزعة أيضًا في أشجار المعارف، وهي أسواق حرة لاقتصاد المعرفة الجديد، تمنح كل مشارك من جماعة ما نظرة شاملة على تنوع الكفاءات في مجموعته وتتيح له أن يحدد هويته، على شكل صورة، في فضاءات المعرفة. وتكون المعلومة في أشجار المعارف، معروضة دومًا ضمن سياقها، بحسب العلاقة البصرية (شكل/ عمق)، حيث يمثل الشكل المعلومةَ، ويظهر العمقُ السياقَ. وهكذا تمنح المعلومة نفسها مظهرًا، أو صورة أو

ستارًا مختلفًا بحسب ما تكون عليه في هذا السياق أو ذاك. أما بالنسبة إلى السياق (الشجرة، أشكالها، ألوانها)، فإنه يبرز بشكل دينامي من خلال عمليات التعلم وتبادل المعرفة التي ينجزها المشاركون، وبشكل عام، من مدونات المعلومات ذات الصلة واستخدام مجموعة ما لها.

القشرة الدماغية لأنتروبيا

إن نقل ذاكرة اجتماعية وتقاسمها أمران قديمان قدم الإنسانية. تنتقل روايات وحيل وحِكَمٌ من جيل إلى جيل. بيد أن تطور تقنيات الاتصال والتسجيل قد وسع كثيرًا من مدى المخزون القابل للتقاسم (مكتبات، مجموعات أقراص وأسطوانات، مستودعات أفلام سينمائية). إن المعلومة المتوافرة اليوم على الإنترنت أو في الفضاء السيبراني بشكل عام لا تتضمن «المخزون» المهجَّر من النصوص، والصور، والأصوات الاعتيادية، فحسب، ولكن أيضًا وجهات نظر نصية تشعبية حول هذا المخزون، وقواعد معرفة بإمكانات استنباط مستقلة، ونماذج رقمية متوافرة لكل أنواع المحاكاة. وبالإضافة إلى هذه الكميات من المستندات الجامدة أو الدينامية، هناك مشاهد دلالية متقاسَمة تنسق البنى الشخصية المتنوعة للبحر المعلوماتي. ويجب تمييز الذاكرة الجماعية الفاعلة في الفضاء السيبراني (دينامية، وناشئة، وتعاونية، ويعاد العمل عليها خلال الزمن الحقيقي بالتفسيرات) بشكل واضح عن النقل التقليدي للروايات والخبرات والتسجيلات الجامدة في المكتبات.

وأبعد من الذاكرة، تعتبر البرمجيات بمثابة وحدات إدراكية صغيرة تلقائية تتداخل مع ذاكرة الأشخاص وتغيّر أو تزيد قدراتهم على الحساب أو التفكير أو التخيّل أو الإبداع أو التواصل أو التعلم أو «تصفح» المعلومة. وفي كل مرة ننتج فيها برمجيةً جديدةً، يزداد الطابع الجماعي للذكاء. وفي الحقيقة، إذا كان التزويد بالمعلومة لا يؤدي إلّا إلى زيادة المخزون المشترك (أو إغناء بنيته)، فإن البرمجية تزيد من وحدات التشغيل المتقاسَمة. وتوضح البرمجة التعاونية للبرمجيات في الفضاء السيبراني بشكل لافت الإنتاج الذاتي للذكاء الجماعي، وبخاصة، حين يهدف البرنامج نفسه إلى تحسين البنية التحتية للاتصال الرقمي.

إنّ الفضاء السيبراني يسهل الوصلات والتنسيقات والتآزرات بين الذكاءات الفردية، خصوصًا أن السياق الحي يتم تقاسمه بشكل أفضل، وأن الأفراد أو المجموعات يمكن أن يهتدي بعضها إلى بعض في مشهد افتراضي للمنافع أو الكفاءات، وأن هناك زيادة في تنوع الوحدات الإدراكية المشتركة أو المتوافقة بشكل متبادل.

نحن نعرف أنّه كان لدى الناس شعور بأنهم يعيشون «منعطفًا» هامًّا في كل حقبة تاريخية. ومثل هذا الانطباع يبقى نسبيًّا في الفترة المعاصرة. ولا يمكنني بالرغم من ذلك استبعاد فكرة كوننا نعيش اليوم تحوّلًا رئيسيًّا في أشكال الذاكرة الجماعية. ويبدو أن التجسيد الدينامي للسياق الناشئ، والتقاسم الكبير والمتزايد لمشغّلات إدراكية متنوعة، والتواصل البيني في زمن حقيقي،

تعزّز تأثيراتها بشكل متبادل، بغض النظر عن البعد الجغرافي. وإحدى الميزات البارزة للذكاء الجماعي الجديد هي حدة تفكيره في الذكاءات الفردية؛ إذ تصبح الأفعال النفسية لشريحة متزايدة من البشرية حساسة تجاه الأشخاص بشكل شبه مباشر. ويسمح بعض أشكال العوالم الافتراضية تقريبًا بالتعبير، ووضع خرائط في زمن حقيقي للمكونات الطوبولوجية والرمزية والقيمية والطاقوية للنفسانيات الجماعية.

إنّ صورة كوكبنا عبر الأقمار الصناعية، والمعلومات التي تصلنا عنه عن طريق عدد كبير من شبكات الحسّاسات العالمية، والنماذج المعلوماتية المدمجة بهذه المعطيات، والمحاكاة التي تجعلنا نتوقع ردود فعل الأرض، وتاريخها، والحميمية الفائقة لحياتها المتناهية البطء والكتيمة والهائلة والمبعثرة، تساهم كلّها في إبراز أو إعادة إبراز الصورة القديمة لغايا Gaia(*) في تصور الناس. وفي مقابل الآلهة القديمة جدًّا والتي لا زالت ممزوجة بمادتها، فإننا نستطيع الآن بالكاد أن نسمع أو نرى القشرة الكبيرة الدماغية التشعبية لابنتها أنتروبيا (Anthropia) تفكر، وتنمو تحت نظرنا، سريعة ومدوية.

وبالدرجة نفسها التي للبحث النفعي عن المعلومة، فإن الإحساس المذهل بالغوص في الدماغ المشترك والمشاركة فيه هو الذي يفسر الشغف بالإنترنت. إن تصفح الفضاء السيبراني يشبه

(*) غايا (Gaia): تُعدُّ غايا في الأساطير الإغريقيّة القديمة تجسيدًا للأرض في سرديّة نشأة الكون لهسيود، وهي سلف الأمهات الإلهية والوحوش.

تصويب نظرة واعية في الداخلية الفوضوية والخرير الذي لا يهدأ والتفاهات السخيفة والومضات الكونية للذكاء الجماعي.

إن الولوج إلى السيرورة الفكرية للكل يُعلِمنا بما في السيرورة الفكرية لكل جزء، أو فرد أو جماعة، ويغذي بالرُّجْعَى السيرورة الفكرية للمجموع. وبذلك ننتقل من الذكاء الجماعي إلى الجماعة الذكية.

وإلى جانب العديد من المظاهر السلبية، وعلى الأخص خطر تهميش قسم غير مؤهل من الناس، يبدي الفضاء السيبراني خصائص جديدة تجعل منه أداة قيمة للتنسيق غير التراتبي، ووضع الذكاءات بوضع تآزر سريع، وتبادل المعارف وتصفحها، والخلق الذاتي المتعمد لجماعات ذكية.

إنّني أقترح مع آخرين أن نغتنم هذه اللحظة النادرة التي تنبئ عن ثقافة جديدة لكي نوجه التطور الجاري بشكل متعمد. وطالما أن تفكيرنا محصور ضمن منظور التأثير، فإننا محكومون بالمعاناة. إنّنا نرى من جديد أن التقنية تقترح، أمّا الإنسان فإنّه يختار. ولنكفّ عن شيطنة الافتراضي (كما لو أنه معاكس للحقيقي!). إذ لا يكمن الخيار بين الحنين إلى الحقيقي الذي أكل عليه الدهر وشرب، والافتراضي الذي يهدد ويثير، لكنه يكمن بين مفاهيم مختلفة للافتراضي. والخيار بسيط: فإمّا أن يقوم الفضاء السيبراني بإعادة إنتاج الإعلام، والعروض الفنية، واستهلاك المعلومة التجارية، والإقصاء على نطاق أضخم بكثير ممّا هو عليه اليوم، وهذا يمثل

بشكل عام الاتجاه الطبيعي «للطرقات السريعة للمعلومات» أو «التلفاز التفاعلي». وإمّا أن نواكب الاتجاهات الأكثر إيجابية للتطور الحاصل، ونحدد لأنفسنا مشروعًا حضاريًا يهتم بالجماعات الذكية: كإعادة خلق الرابط الاجتماعي عن طريق تبادل المعرفة، والاعتراف والإصغاء وإضفاء القيمة للتميّزات الشخصية، والديمقراطية المباشرة والمشاركة بشكل أكبر، وإغناء الحياة الفردية، وابتكار أشكال جديدة من التعاون المفتوح لحل المسائل الحادّة التي يجب على الإنسانية مواجهتها، وترتيب البنى التحتية البرمجيّاتية والثقافية للذكاء الجماعي.



8

افتـرضـان الـذكـاء وتـكـويـن الـغَـرَض

مسألة الذكاء الجماعي

من السهل طرح مسألة الذكاء الاجتماعي، ولكن من الصعب حلها. هل يمكن مجموعات إنسانية أن تكون جماعيًّا أكثر ذكاء وحكمة وعلمًا وخيالًا من الأشخاص الذين يكوّنونها؟ لا على المدى البعيد، وعلى امتداد التاريخ التقني للمؤسسات والثقافة فحسب، ولكن هنا والآن، في سياق الأحداث والأفعال اليومية.

كيف ننسق بين الذكاءات ليتكاثر بعضها من خلال بعض عوض أن تلغي نفسها؟ هل توجد وسيلة للحث على تثمين متبادل، وإشادة متبادلة بالقدرات الذهنية للأفراد بدلًا من إخضاعها لمعيار أو تخفيضها إلى أدنى قاسم مشترك؟ نستطيع أن نفسر تاريخ الأشكال المؤسساتية، واللغات والتقانات الإدراكية كلّها على أنها محاولات جيدة أو سيئة لحل هذه المسائل.

فإذا كان الناس كلهم أذكياء على طريقتهم، فإن المجموعات تصيبنا غالبًا بخيبة الأمل. ونحن نعرف أنّه ضمن حشد من الناس، عوض أن تجتمع ذكاءات الأشخاص، فإنها تميل غالبًا إلى الانقسام. إنّ البيروقراطية وأشكال التنظيم السلطوية تؤمّن قدرًا من التنسيق، ولكن على حساب خنق المبادرات وتسطيح التميّزات الشخصية.

لا شك في أنّ القواعد الجيّدة للتنظيم والإصغاء المتبادل تكفي لتثمين الذكاءات المتبادلة في المجموعات الصغيرة. ولكن فوق مقياس يُقدّر بعشرة آلاف شخص، لم يكن من الممكن ولفترة طويلة الاستغناء عن التخطيط التراتبي وإدارة الإنسان ضمن فئات كبيرة. وأطرح هنا ـ بالاتفاق مع عدد متزايد من اللاعبين السياسيين والاقتصاديين والفنانين ـ الفرضية القائلة بأنّ تقنيات الاتصال المعاصرة تستطيع إعادة توزيع التراتبية الأنتروبولوجية القديمة جدًّا، والتي كانت تلزم المجموعات الكبيرة بأشكال تنظيم سياسي شديدة البعد عن المجموعات الذكية.

لماذا كان لـ«عالم الثقافة»، بالمعنى البورجوازي للكلمة، أي المجموعات الإنسانية التي أنتجت وتذوقت العلوم والفلسفة والأدب والفنون الجميلة، هذا السحر لفترة طويلة؟ ربما لأنه كان يقارب، بطريقته النخبوية والناقصة، مثلًا أعلى للذكاء الجماعي. وها هي بعض المعايير الاجتماعية، والقيم والقواعد السلوكية المفترض بها أن تحكم (بطريقة مثالية) عالم الثقافة: تقويم دائم للأعمال من النظراء والجمهور، وإعادة تفسير دائم للموروث، وعدم القبول بحجة السلطة، والحث على إغناء التراث المشترك، والتعاون التنافسي، والتربية المستمرة للذوق والحس النقدي، وتثمين المحاكمة الشخصية، والاهتمام بالتنوع، وتشجيع الخيال والإبداع والبحث الحر. سنكون قد بدأنا بحل عدد من المشاكل الجوهرية للعالم المعاصر حينما نجتهد في إرساء آلية «مثقفة» خارج المجالات المتخصصة والأوساط الضيقة حيث تكون محصورة بشكل عام.

إنّ إحدى أهم علامات التقارب بين عالم الثقافة هذا والمجموعات الذكية هي التزامه (المبدئي) بوضع السلطة بين هلالين. وبالطبع لا يكون المثل الأعلى للذكاء الجماعي بنشر العلم والفنون في المجتمع بأكمله، مُقصيًا بذلك أنماطًا أخرى من المعرفة والحساسيات، وإنّما بالاعتراف بأن تنوع النشاطات الإنسانية من دون استثناء يمكن، بل يجب تناوله ومعالجته والتعايش معه على اعتباره «ثقافة» بالمعنى الذي ذكرناه للتو. وبالتالي يمكن، بل ينبغي احترام كل إنسان من حيث هو فنان أو باحث في جمهورية الأرواح.

يبدو هذا البرنامج طوباويًا، إلّا أن مفتاح القوة الاقتصادية والسياسية، بل حتى العسكرية، يكمن اليوم تحديدًا في القدرة على إنتاج مجموعات ذكية. ولا أنكر هنا وجود علاقات سلطة أو هيمنة، غير أنني أحاول فحسب أن أشير إليها على ما هي عليه: معوقات للقوة. ذلك أنّ مجتمعًا ذكيًا بأكمله يكون دومًا أكثر فعالية من مجتمع موجه بشكل ذكي. ولا تكمن المشكلة في معرفة ما إذا كنا مع أو ضد الذكاء الجماعي، ولكن في الاختيار بين مختلف أشكاله: ناشئًا أو مفروضًا من الأعلى؟ يحترم الاستثنائيات أو مجانسًا؟ يثمّن ويضع تنوع الموارد والكفاءات بحالة تآزر أو يقصيها باسم المنطقية أو النموذج المهيمن؟

في الملعب

كيف يمكننا إذًا أن ننتقل من الذكاء الجماعي المتأصل في الحالة الإنسانية إلى الجماعات الذكية التي تحسّن إراديًا مواردها الفكرية

هنا والآن؟ كيف يمكننا خلق مجتمع مرن وقوي وخلّاق بدون أن نؤسس الجماعة على كراهية الأجنبي أو آلية الضحية أو علاقة مع وحي ملهم أو قائد أرسلته السماء؟ كيف يمكننا أن نربط أفعال الأشخاص ومواردهم بدون إخضاعهم لظاهرية تسلبهم استقلاليتهم؟ لا يمكن صنع نظام كهذا بسن قانون، وهو يحتاج بلا شك إلى أكثر من النية الحسنة.

لقد علمنا ميشيل سير أن نقرأ في الملاعب بعض نظريات الأنتروبولوجيا الأساسية. لنضرب مثلًا مباراة في كرة القدم أو لعبة الركبي، ولنصغ في البداية إلى الصوت المتصاعد في المدرجات. يصرخ مشجعو الفريق نفسه كلهم تقريبًا بالهتافات نفسها وفي الوقت نفسه. والأفعال التي يقوم بها الأفراد لا يمكن تمييزها، ولا تتمكن من التضافر لتحدث رواية أو تولد ذاكرة. إنّ الفرد غارق في كتلة المشجعين وسط ضوضاء الحشد الجماهيري. وذكاء هذه الكتلة البشرية (المقدرة على التعلم والتخيل والمحاكمة) ضعيف جدًّا، سواء في الملعب أو عند مغادرته.

ولننظر الآن إلى الملعب. ينجز كل لاعب حركات متميزة عن حركات الآخرين بوضوح. ومع ذلك، تهدف كل الحركات إلى التناسق وتحاول أن تتجاوب في ما بينها وأن يسند بعضها إلى بعض معنى. وخلافًا لأفعال المشجعين، تتدخل أفعال اللاعبين ضمن رواية جماعية، ويوجه كل فعل بشكل مختلف مجرى مباراة غير محسومة. تنفذ الفرق استراتيجيات، وترتجل، وتجازف. وعلى كل

لاعب أن يتنبّه لا لما يفعله الخصوم فحسب، ولكن أيضًا لما يجري ضمن فريقه حتى لا تكون الحركات التي ينجزها لاعبو فريقه عديمة الجدوى. إنّ اللعبة «تُبنى».

ولا يملك المشاهدون أي أثـر ممكن على المشهد الـذي يوحدهم. ووظيفتهم واحدة في كل الحالات إزاء الملعب الخارج عن تأثيرهم. فالرابط (العرض الرياضي) يلهم الأشخاص الذين يشكلون الجماعة. ويكمن الانتماء إلى مجتمع المدرجات في أنها تكون مع أو ضد، أي أن تنتمي إلى طرف وأن تحب فريقك وتصبح مستهزئًا بالآخرين.

وفي مقابل ذلك، لا يكفي في الملعب أن نكره الطرف المقابل. بل يجب أن ندرسه، ونخمّن فعله، ونتوقعه، ونفهمه. ويجب بشكل خاص أن نرتب أنفسنا في الزمن الحقيقي وأن نتفاعل بدقة وسرعة «كرجل واحد» على الرغم من كوننا عدة أشخاص. إنّ هذا التآزر التلقائي للكفاءات والأفعال ليس ممكنًا إلّا بفضل الكرة. ففي الملعب، تتخلى الوساطة الجماعية عن إلهامها. ويكفّ الرابط بين الأفراد عن بقائه بعيد المنال ويصبح بين أيدي (أو أقدام) الجميع. تنتظم الوحدة الحية للاعبين حول غرض ـ رابط محايث من خلال فـرد متحرك أو مركز متحرك يكون فيه كل واحـد بـدوره محورَ المجموعة مؤقتًا، وتصبح المجموعة الذكية للاعبي كرة القدم مرجعًا لنفسها. ويحتاج المشاهدون إلى لاعبين لكن الفِرَق ليست بحاجة إلى مشاهدين. يوجد مثل صيني تقريبي يقول إن الإصبع تشير إلى

القمر لكن الأحمق ينظر إلى الإصبع. يحوّل اللاعبون في آن واحد وبمهارة الكرة إلى شاهد يدور بين أشخاص فرديين، وناقل يتيح لكل شخص أن يشير إلى كل شخص وإلى الغرض الرئيسي، أي الرابط الدينامي للشخص الجماعي. إنّنا نعتبر الكرة النموذج الأوّليّ للغرض ـ الرابط،، والغرض المحفّز للذكاء الجماعي. وأفترض أن غرضًا كهذا غير معروف عند الحيوانات، وهو ما أدعوه ببساطة وبشكل اصطلاحي الغرض.

الفرائس والمناطق والزعماء والذوات

ليس لدى الثدييات العليا أغراض، وبخاصة الرئيسات الاجتماعية التي ننحدر منها. ومن المؤكد أنها تعرف الفرائس مثل كل الحيوانات. والفريسة إلى حدٍّ ما هي غرض أولي. قد يؤدي الصيد إلى التعاون. ولكنّ الفريسة الملتقطة قد تؤدّي إلى المنافسات أو المعارك. فهي إذًا مشغّل اجتماعي أولي. غير أنّ قدر الفريسة أن يتم التهامها وإدخالها وامتصاصها في النهاية ضمن كائن ما. هل رأينا يومًا اللاعبين يقومون بتمزيق الكرة الملتقطة وتقاسمها ثم أكلها؟

وتعرف الحيوانات أيضًا علاقات قوية مع المناطق. فكل مجتمع يحمي منطقته ضد اجتياح الآخرين. ويحدد المجتمع الحيواني هويته بخاصة من خلال علاقته بمنطقة معينة. وتحدد الكلاب والقطط وعدد آخر من الحيوانات مناطقها بروائحها الجسدية. والعصافير تشغله بغنائها. فلماذا لم تصبح المنطقة غرضًا هي أيضًا؟ لأنها تعمل على نمط التملك أو التحقق من الهوية الحصري. لن تشاهد

أبدًا لاعبًا يثبت رايته على كرة ويدعي ملكيتها الحصرية. فالمؤسس الحقيقي للمجتمع المدني هو الذي رفض تسييج جزء من العالم الفيزيائي وصرح للمرة الأولى: هذا غرض. ولكي يلعب الغرض دوره الأنتروبولوجي، ينبغي عليه أن يمر من يد إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر، وأن يتنصل من الملكية المناطقية أو التسمية أو الحصرية أو الإقصاء.

وتَعرِف الرئيسات الاجتماعية أيضًا علاقات الهيمنة التي تلعب دورًا أساسيًا في ضبط التفاعل بينها. ونلاحظ من جهة أخرى أن علاقات الهيمنة الثابتة بتدرجات في المراتب والتراتبيات الدقيقة لا توجد سوى عند الفقريات. ولا نجدها عند الحشرات الاجتماعية التي تعرف بالمقابل تعدد السلوكات (سلوكات نمطيّة جدًّا حسب الطبقات) وتعدد الأشكال (فروق تشريحية بحسب التقسيم الاجتماعي للعمل). وتنفلت العلاقات الاجتماعية التراتبية من البرمجة الوراثية وتتقرر غالبًا نتيجة لمعارك مفتوحة. ويجب ربطها من دون شك بالاستعداد للاستقلال الشخصي الذي هو أكثر وضوحًا عند الثدييات منه عند الحشرات، ويعتبر الباحثون في السلوك الحيواني هذه الهيمنة نمطًا لضبط العدوانية بين أعضاء من المجموعة الاجتماعية نفسها، مع العلم أن هذا النوع من العدوانية نادر جدًّا عند الحشرات. ويمارس الفرد المهيمن وظيفتي التوحيد والتنسيق في المجتمع بتثبيط العدوانية بين الأفراد، وذلك باستقطاب اهتمام بقية الأعضاء عند فرضه التوجهات الكبرى (صيد، هجرة). ومرة أخرى، لا يمكن اعتبار الكائنات المهيمنة ولا الكائنات الخاضعة

أغراضًا. إلّا أن للكرة بعض القرب من علاقة الهيمنة، لأنها في الوقت نفسه خاضعة ومركز اهتمام. وبشكل ما، **تحل الكرة محل الزعيم أو** المرؤوس أو الضحية، غير أنّها تجعلهم افتراضيين. وبعيدًا عن تحديد علاقة هيمنة ما، تحافظ الكرة على النقيض من ذلك على علاقة تعاونية (في الفريق نفسه) وتنافسية (بين الفريقين) متساوية ومفتوحة دائمًا. ويصحّ القول إنّ اللعبة تكرس أبطالًا وتخلّف مهزومين، ولكن هذه الأحوال لا تدوم إلّا أثناء المباريات. ولا توجد أي تراتبية معينة أثناء اللعب: إن تحرك الكرة يجعل اللاعبين بحالة معلّقة.

وتنجم العلاقة بالنسبة إلى الغرض عن تحول افتراضي لعلاقات الاقتناص أو الهيمنة أو الاحتلال الحصري. ويشير الإصبع إلى الضحية أو يبين الشخص المهيمن أو يحدد المنطقة. أمّا الأحمق فينظر إلى الإصبع ويتكر الغرض.

الأدوات والقصص والجثث

توضح الكرة بشكل رائع مفهوم الغرض. إنها نموذجية لوظيفة البشرنة التي لديها لأن الاستعداد القوي للعب هو إحدى الخصائص الرئيسية للجنس البشري. ولا يوجد أي حيوان يلعب بالكرة جماعيًا ولا بأي شيء آخر مشابه. إنّ الألعاب الحيوانية تكون في معظم الأوقات محاكاة لمعركة، أو لعملية اقتناص، أو لهيمنة أو لعلاقات جنسية تدخل فيها المشاركة الجسدية مباشرة من دون الحاجة إلى وسيط مجسد. ولكن هناك أنواع أخرى من الأغراض تتعلق ـ بدرجات متفاوتة ـ بالنموذج المثالي الذي تمثله الكرة بشكل جيد.

ولنذكر بشكل خاص: الأداة أو المادة أو العمل الفني الذي ينتقل من يد إلى أخرى خلال الأعمال الجماعية؛ القصص القديمة التي نتناقلها مع تغييرها من جيل إلى جيل، كل حلقة تصغي وتروي بدورها؛ حكاية الجثة أثناء الطقوس الجنائزية وبعدها.

إنّنا نتعرف إلى الغرض من خلال قوته في تحفيز العلاقة الاجتماعية وتحريض الذكاء الجماعي، والذكاء التقني والتعاون للأدوات، الإبداعية الجماعية للخرافات والأساطير والفولكلور لانتقال الروايات. ولا تحتاج هاتان الحالتان الواضحتان إلى تعليق خاصّ. إنّ مثال الجثة أقل وضوحًا. ويحيل الجثمان إلى الطقس، وإلى ما نسميه اليوم بالدين، وهي أشكال قديمة للذكاء الجماعي، لكنها قوية. تدور المجموعة في أثناء الجنازة حول المتوفّى، فتحيط به، وتغسله، وتكسوه، وتبكيه، وتعيد بناءه بكلمات الثناء، وتلمسه بالورود أو بذرّ التراب، وتدفنه أو تحرقه. وعلى الرغم من كونه غير نقي أو منبوذ، فإنّ الميت المنظم بشكل طقوسي والمجسد، يبقى عامل اندماج اجتماعي. وعلى النقيض من ذلك، لو لم يتم الدفع بالجثة في اللعبة الجنائزية التي تجعل منه غرضًا جماعيًّا، أو لو عوملت الجثة كمجرد شيء، أو لو لم يتم اعتبار اللحم المتحلل على أنه الجسد الافتراضي الميت، لكان ذلك علامة أكيدة على تفكك المجموعة وتجردها من الإنسانية. إنّه من المغري أن نرى الافتراضية الأصلية، وانتقال موضوع الهيمنة إلى الغرض من خلال العلاقة مع الجثة: جسم محنط لزعيم أو جمجمة مهزوم يؤتى بها كتذكار.

والرأس المصغّر عند قبائل الجيفاروس (Jivaros)(*) والذي يلعب دورًا معقدًا في إعادة تأسيس الجماعة، هل يمكن اعتباره نوعًا من السلف الوحشي للكرة؟

المال ورأس المال

تشكل العُملة في النظام الرأسمالي بدون أدنى شك أحد الأغراض الأكثر فعالية. ولو احتفظ كل واحد بماله في صندوق شخصي لانهار النشاط الاقتصادي المعاصر فجأة وبشكل كامل. وفي المقابل، لو احتفظ كل مالك بأرضه فلن يترتب على ذلك أيّ نتيجة كارثية على الزراعة. ونظرًا لكون العملة انسيابية وقابلة للتقاسم ومغفلة الهوية، فإنها تشكّل نقيضًا للأرض. وهذا ما يعبر عنه بشكل مصور القول المأثور الشهير: لا توجد رائحة للعملة. لا يوجد شخص مهما كانت رائحته كريهة يستطيع أن يطبع العملة بهويته أو أفعاله. ولا وجود للعملة على وضعها الحالي ولا وظيفة اقتصادية إيجابية لها إلّا من خلال تداولها. إنها الراسمة والناقلة والضابطة للعلاقات الاقتصادية.

ولا يشكل المال الثروة ولكنه افتراض للثروة. ومهما بدا الأمر متناقضًا، فإن المال غير قابل للتملك، أو بالأحرى ونتيجة لحركته

(*) قبائل الجيفاروس أو الجيفارو (Jivaros): قبائل بدائيّة تستوطن أدغال الأمازون، ويعدّ قطع الرؤوس عندها علامة على الظفر المؤكّد، وكانت تتخذ من رؤوس الأعداء المقطوعة أدوات للزينة ومهورًا لخطبة النساء، ومفاخر يعتزّ بها صاحبها أو القبيلة برمّتها. وقد كان قطع الرأس وتحنيطه وحفظه يتمّ في جوّ احتفاليّ طقوسيّ غايته إدامة النصر ونشر المفاخر وتحدّي الأعداء، إضافة إلى أنّه يعيد شدّ أواصر القرابة بين أفراد القبيلة الواحدة.

المستمرة، فإنه يحول العام إلى خاص والخاص إلى عام، بشكل يجعل كل واحد فينا يشارك، وبشكل مختلف، في الذكاء الجماعي للسوق الرأسمالي. ويمكن المال أن يكون رافعًا للسلطة والهيمنة ولكنه يحفز أيضًا قوى اجتماعية تدفع إلى اللامكان ولا تحترم أيّ تراتبية مؤسَّسَة. ويساهم المال، عبر الحدود وبالرغم من الخصومات، سلبًا أو إيجابًا، في تنسيق العديد من النشاطات من دون سلطة مركزية وضبطها. إن مال السوق الرأسمالي المتوافر بين أيدي مليارات الناس هو الذي ينسج اليوم بالفعل المجتمع العالمي، جاذبًا نحوه وسائل النقل والاتصال. ولا داعي للتأكيد على هذه النقطة: إذا كان هناك أدوات إجمالية مبهمة أو لغات أو طقوس جنائزية في بعض المجتمعات الحيوانية، فلا شيء عندها يشبه العملة أو حتى الرأسمال.

المجتمع العلمي وأغراضه

إنّ المجتمع العلمي هو مثال آخر على المجموعة الذكية الموحدة في تداوله الأغراض. وهذه الأغراض مبدئيًا «تُدرس لنفسها» على نمط متجرد: أي أنها ليست مناطق، ولا فرائس، ولا أشخاصًا خاضعين أو مبجّلين. وتبرز مثل هذه الأغراض من دينامية ذكاء جماعي تُفَرْضِنُ بعض التظاهرات الخاصة (ثمرات الملاحظة والتجربة والمحاكاة) لتعطي للوجود مسائل ذات أهمية: الإلكترون، والثقب الأسود، ونوعًا معينًا من الفيروسات...

يدخل التداول في تركيب الغرض والمجتمع في آن واحد: لا تصبح الظاهرة التي يتم توضيحها في المختبر «علمية» إلّا إذا أعادت

إنتاج نفسها (أو كانت على الأقل قابلة لإعادة الإنتاج) في مختبرات أخرى. أمّا المختبر الذي لم يعد يتلقى ـ ولم يعد يحيل إلى مراكز البحث الأخــرى ـ الأدوات، والبروتوكولات التجريبية وأخيرًا «أغراض» المجتمع (الكواكب، والجسيمات الأولية، والجزيئات، والظواهر الفيزيائية أو البيولوجية، والمحاكاة) فإنّه لا يعود عضوًا فاعلًا. وتكمن الإبداعية العلمية في المقدرة على إخراج أغراض حقيقية، أي نواقل لمجتمعات ذكية، قادرة على أن تثير اهتمام مجموعات أخرى تقوم بتداول الغرض الأولي، وإغنائه، وتحويله، بل تفريخه، مغيّرة بذلك هويتها في المجتمع. إن دور كل شخص ـ كما هو الأمر في كرة القدم ـ هو دور فردي وينبغي أن يكون كذلك (المقالة العلمية يجب أن تتحلى بالأصالة)، واللعبة تكون في الوقت نفسه تعاونية وتنافسية والأفعال يتم «بناؤها» الواحد فوق الآخر، ما يساهم في إرساء تاريخية غير انعكاسيّة ومركّبة. وتثبّت التخصّصات الجدلية المفتوحة للأغراض والجماعات العلمية ضمن مناطق.

ومن المؤكد أن اللعبة العلمية خاضعة للقيود الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وبخاصة في ما يتعلق «بالوسائل» الضرورية و«العواقب» المترقبة أو الفعلية، ويمكننا أن نقول الشيء نفسه في ما يتعلق بكرة القدم الاحترافية. ولكن لو تم اختزال التعاون المؤسساتي العلمي التقني إلى مجرد قيود وموازين قوى ولعبة تحالفات في الوسط الهجين للمجموعات أشخاص ـ أغراض، لما دامت إبداعيته الفريدة وتأثيره على العالم طويلًا. ويمكن تشبيه ذلك كما لو أننا لم نعرب عن الحب إلّا من خلال مفاهيم

الماركيزة دو ميرتوي (marquise de Merteuil). إنّنا لا ننتقد هنا نظريات المدرسة الجديدة لأنتروبولوجيا العلوم والتقنيات [Latour, 1989, 1993]، بقدر ما ننتقد الرسوم المشوهة لبعض صيغها.

وليست المؤسسة العلمية مجرد علاقة بين الناس، ولا عملية اقتناص أو تملّك للأشياء. وإنّما هي تكرّر عملية التكوين المتبادل للجماعات الذكية وأغراض المعرفة. إنّ أغراض العلم غير موجودة قبل «اكتشافها» ولا تشكل مرجعيات ملهمة لحقائق مطلقة، فهي متأصلة في الإجراءات التقنية التي تقوم بتكوينها، وفي الجماعات التي تطرحها للتداول. ولكنها ليست اعتباطية أو نسبية خالصة لهذا السبب، إذ هي تجازف في عمليات انتقاء تؤهلها وتحكم في المقابل عليها. ومن بين كل الاقتراحات المتعلقة بالأغراض، توجد قلة قليلة منها تستطيع في النهاية فرض أهمية الاختبارات التي تتيح «صناعة الغرض» [Stengers, 1993].

الفضاء السيبراني من حيث هو غرض

يمثل انتشار الفضاء السيبراني بلا شك آخر أهم الانبثاقات الكبيرة للأغراض المحرضة للذكاء الجماعي. ما الذي يجعل فضاء الإنترنت مثيرًا للاهتمام إلى هذه الدرجة؟ إن نعته بالـ«فوضوي» هو طريقة رديئة وخاطئة لوصف الأمور. إنه غرض مشترك، دينامي، يبنيه كل الذين يستخدمونه، أو على الأقل الذين يغذونه، وقد أصبح بالتأكيد متلازمًا مع ما ميّز صناعته وانتشاره وتحسينه على يد المعلوماتيين

الذين كانوا في البداية مستخدميه الرئيسيين. إنه في الوقت نفسه غرض مشترك بين منتجيه ومستكشفيه [Huitéma, 1995].

يمنح الفضاء السيبراني أغراضًا تتنقل بين المجموعات، والذواكر المتقاسمة، والنصوص التشعبية للمجتمع، لتأسيس جماعات ذكية. ويجب أن نميزه أولًا، عن التلفزيون الذي لا يكف عن الإشارة إلى الأقوياء أو الضحايا لحشود بشرية مفصولة وعاجزة. وثانيًا، يجب أن لا نخلط بينه وبين توأمه الفاسد، الطريق السريع الإلكتروني، الذي يفرض منطقةً (شبكات فيزيائية، خدمات مدفوعة) بدلًا من الأغراض المشتركة. وبذلك يحطُّ الطريق السريع الإلكتروني من مستوى غرض متداول إلى شيء قابل للتملك. وإذا كان الفضاء السيبراني ناجمًا عن افتراضان الحواسيب، فإن الطريق السريع الإلكتروني يشيّئ هذا الافتراضي. إن لفظاظة النقاشات حول الطابع التجاري أو غير التجاري للإنترنت نتائج أنتروبولوجية عميقة. وأحد بواعث الفخر عند المجتمع الذي ساهم في نمو الشبكة هو أنه ابتكر في الوقت نفسه مع الغرض الجديد، طريقة مستحدثة لعمل المجتمع بشكل ذكي. ولا تكمن المسألة إذًا في نبذ تجارة الإنترنت (لماذا يجب أن ننبذها؟) ولكن في المحافظة على طريقة مبتكرة لتكوين جماعات ذكية، وطريقة مختلفة عن تلك التي يحرض عليها السوق الرأسمالي. إنّ رواد الفضاء السيبراني لا يحتاجون إلى المال لأن مجتمعهم لديه غرض مؤسِّس، وافتراضي، قائم في اللامكان، ومولّد لروابط، وإدراكي بطبيعته ذاتها. غير أنّ الفضاء السيبراني من جهة أخرى يتوافق تمامًا مع المال أو الوسائط المحايثة الأخرى،

بل يزيد بشكل كبير القدرة على التحويل إلى الافتراضي، وسرعة تداول الأغراض المالية والعلمية. إنّ الشبكة تسرّع الأغراض وتجعل الافتراضي افتراضيًّا، باستقبالها الروابط السارية للمجموعات الذكية. وفي هذا الصدد، ربما لم نر شيئا بعد.

إن علاقات الاقتناص والتملك والسلطة تنطلق من جديد وعلى نطاق أوسع أيضًا بفضل منتجات النشاط الاقتصادي والعلمي، وبالاستناد إلى وسائل الفضاء السيبراني. ومن بين كل مكوّنات المملكة الحيوانية، فإن الإنسان هو الذي يمارس الإمبريالية المناطقية والاصطياد بلا شفقة والهيمنة القاسية بأعلى درجة. ولكن هذه الأنماط من العلاقة عند الإنسان تتوقف مؤقتًا بفضل العلاقة بالغرض. ومن المؤكد أن المجمع العلمي التقني والمال والفضاء السيبراني تجعل من الإنسان صيادًا، ومالكًا، ومهيمنًا مروعًا أكثر من أي وقت سابق. غير أنّ الأغراض الكبيرة المعاصرة لا تمنحه هذه القوى إلّا بإرغامه على إجراء التجربة الإنسانية بامتياز، وهي التي تتمثّل في التخلي عن الفريسة وهجر السلطة والتخلي عن الملكيّة. إنها تجربة الافترضان.

ما الغرض؟

لقد حان الوقت الآن لإبراز الميزات العامة للغرض الأنتروبولوجي، غرض ـ رابط أو وسيط الذكاء الجماعي. وينبغي لهذا الغرض أن يكون هو نفسه عند الجميع، ولكنه في الوقت نفسه يختلف من شخص إلى آخر. بمعنى أن كل شخص يحتل بالنسبة إليه

موقعًا مختلفًا. ويحدد الغرض العلاقات التي يقيمها الأفراد بعضهم بين بعض أو يرسمونها. إنه يتجول فيزيائيًا أو مجازيًا بين أعضاء المجموعة. ويتواجد في الوقت نفسه أو بالتناوب بين أيدي الجميع. ونتيجة لذلك، يستطيع كل واحد أن يسجل فيه فعله أو مساهمته أو حافزه أو طاقته. ولا يتيح الغرض حمل الكلّ إلى الفرد فحسب، ولكنه يشرك الفرد أيضًا في الكلّ، ويبقى الغرض مع ذلك خارجيًا، «مجسدًا»، لأنه ليس عضوًا في المجموعة مثل الآخرين، بالرغم من أنّه قد وقع احتواؤه والسيطرة عليه. إنه يحرض إذًا نوعًا من التسامي الذي يدور باستمرار، واضعًا بشكل متناوب وعابر كل موضع يتصل به في وضع العامل المركزي. ويشكّل هذا الإلهام المتقاسَم، هذا المركز الهارب من مكان إلى مكان من دون شك، أحد الإشكالات الرئيسية للمحايثة. وأخيرًا، لا يكون الغرض غرضًا إلّا عندما يمسك الجميع به ولا تتشكل المجموعة إلّا بتداوله. ويقوم الغرض بدعم الافتراضي: يرسم الحالة، ويحمل الحقل الإشكالي، عقدة التوترات أو المشهد النفسي للمجموعة، لكونه متوافرًا في اللامكان، وعامل عبور متبادل من الخاص إلى العام، أو من المحلي إلى الشامل، ولكونه لا يتلف بالاستخدام، ولكونه غير حصري. وتتحين هذه الافتراضية ذات الركيزة الشيئية، عادة بأحداث، وبعمليات اجتماعية، وبأفعال أو بعواطف الذكاء الجماعي (تمريرات الكرة، عروض رواية، عمليات شراء أو بيع، تجارب جديدة، روابط مضافة إلى الوِيب). ولكن عوضًا عن قيادة الأفعال، يمكن الغرض أيضًا أن يتداعى متحولًا إلى شيء، أو إلى موضوع أو إلى مادة، أو أن يتشيأ

في فريسة أو في منطقة. ويمكن الكيان نفسه أن يكون شيئًا أو غرضًا بحسب الوظيفة التي نطلب منه القيام بها.

ويقتضي عمل غرض كوسيط للذكاء الجماعي دومًا، وجودَ عقد، وقاعدة للعبة، واتفاق. ولكن، يجب التأكيد من جهة أولى أن أغلب العقود لا تتعلق بتداول الأغراض، ومن جهة أخرى، لا يكفي العقد أبدًا (بالتسلسل: القاعدة، الاتفاق، القانون..) لوحده لإظهار الذكاء الجماعي. ولا يتمثل الحدث النادر في تحرير عقد أو إرساء قاعدة ولكن في بروز غرض. ولا توجد، على سبيل المثال، أغراض علمية بدون اتفاقات أو قواعد منهجية، ولكنّ الإعلان عن وصفات إبستيمولوجية أسهل من تحقيق اكتشاف!

نستطيع أن نروي تاريخ الإنسانية، ابتداءً من ولادتها، كسلسلة ظهور أغراض يتّصل كل واحد بشكل من أشكال الدينامية الاجتماعية. وسنرى عندئذ أن كل نمط جديد من الأغراض يولد طرازًا خاصًا من الذكاء الجماعي، وكل تغيير اجتماعي مهمّ يقتضي ابتكارًا لغرض. وعلى المدى الأنتربولوجي، تخلق المجموعات وأغراضُها نفسها اعتبارًا من الحركة نفسها. إن الجنس البشري (الوحيد في هذه الحالة في كل المملكة الحيوانية) ينحو إلى تشكيل مجتمع واحد، بحسب درجة تداول الأغراض وحجمها (أغراض الفضاء السيبراني، والاقتصاد، والمجمع العلمي التقني). وبما أن المجموعات لا تملك سوى ذكاء أغراضها، فإنّ على البشرية أن تحسن أغراضها، بل أن تبتكر أغراضًا لمواجهة سلم المسائل

الجديد. إن أغراض عالم المستقبل، ناقلة الذكاء الاجتماعي، ينبغي أن تحسس كل فرد بالتأثيرات الجماعية لأفعاله. كما ينبغي بشكل خاص أن تشرك كلّ فرد، وأن تأخذ بالاعتبار كل موضع خاص ضمن دينامية المجموع غير المحدودة، حيث تكون قادرة على توفير التمدّد الواسع للفرد. إنّ الموضوعية لا تظهر على صعيد العالم إلّا إذا اعتنى بها الجميع وجالت بين الأمم وأدت إلى زيادة الثقافة عند البشرية.

أرض الأحوال الجوية، أرض الزلازل، أرض الفيلة وحيتان البحر، أرض الأمازون والقطب الشمالي، الأرض التي تحلق فوقها الأقمار الصناعية، الأرض الضخمة والمسالمة، هي الأرض الزرقاء كالكرة.

الغرض / الإنساني

شرحنا في ما سبق أن الإنسانية قد تشكلّت من خلال افتراضان العنف بواسطة العقد، وافتراضان الهُنا والآن بواسطة اللغة، وافتراضان وظائفها العضوية بواسطة التقنية. بيد أن الغرض، العرضاني التأثير، يُتِمّ الافتراضانات الثلاثة للعلاقة مع الكائنات، والعلاقة مع الرموز/ الإشارات، والعلاقة مع الأشياء، ويوحّدها.

ويمكننا في الحقيقة أن نضيف بأن افتراضان العنف لا يمر عبر العقد فحسب، وإنّما أيضًا، وبخاصة، عبر الغرض الذي يحرض العلاقات الاجتماعية غير العنيفة، لأنه يفلت من الاقتناص والتملك الحصري والهيمنة.

ومن جهة أخرى، فإن افتراضان الآن والهُنا عن طريق اللغة يوسع الزمان والمكان إلى ما هو أبعد من الفورية الحسية، كما رأينا سابقًا. ولكن هذا الافتراضان لا يكتمل إلّا مع بناء الغرض، غرض مستقل عن الإحساسات وأفعال الفرد، غرض يُمكن تقاسُم صورته المحسوسة أو استعماله أو تأثيره السببي أو مفهومه مع أشخاص آخرين. إنّ العالم الموضوعي الذي ينبثق من اللغة يتجاوز بكثير أي عالم مادي آخر ولا يكون مسكونًا إلّا من الأشياء. هذا هو رهان اللغة: وجود عالم موضوعي يقوم بربط الكائنات وبتكوين الأشخاص في العملية نفسها.

وأخيرًا، تقوم التقنية بتحويل العمل والوظائف العضوية إلى الافتراضي. فالأداة والقطعة الفنية ليستا مجرد أشياء فعّالة. وتنتقل الأغراض التقنية من يد إلى يد ومن جسم إلى جسم كشواهد. إنها تحرّض على استخدامات مشتركة، وتعتبر بمثابة نواقل للخبرة، ومُراسِلة للذاكرة الجماعية، ومحفّزة على التعاون. من أول أداة مصقولة الجانبين إلى المطارات والشبكات الرقمية، ومن أول كوخ إلى العواصم المخدّدة بالطرقات السريعة والمزروعة بناطحات السحاب تعتبر الأغراض التقنية والمنتجات الصناعية اللُّحمة التي تجمع الناس بعضهم إلى بعض، وتُشرك العالم الفيزيائي في ذاتيتها الأكثر حميمية. وهكذا، يجتاز الغرض الافتراضانات الثلاثة الأساسية لتكوّن الإنسان، إنه مكوّن للإنسان كشخص اجتماعي، وشخص إدراكي، وشخص عملي. إنه يعانق الذاتيات التقنية واللغوية والعلائقية ويوحّدها.

إذا لم تكن حيوانًا، وإذا كانت روحك أكثر افتراضية، وأكثر تحررًا من الجمود الموجود عند القرد أو الجاموس البري، فسبب ذلك بدون شك هو أنّ روحك تستطيع بلوغ الموضوعية. إنّ ذاتيتنا تنفتح على لعبة الأغراض المشتركة التي تنسج الذكاء الفردي والذكاء الجماعي بحركة واحدة، متناظرة ومعقدة، كما هو الأمر على وجهي قطعة قماش، حينما نطرز على كل وجه رقم الوجه الآخر الفاضح وغير القابل للمحو.

الرباعي الأنطولوجي،
الافتراضان تحوّلٌ من بين غيره من التحولات

لقد آن الأوان لنراجع اكتشافاتنا. ليس الافتراضان، أو العبور إلى الإشكالية، بحال من الأحوال اختفاء في الوهمي ولا إلغاءً للطابع المادي. بل ينبغي بالأحرى تشبيهه بإلغاء الماهية، كما سبق أن تحققنا من ذلك في أمثلة الجسم ـ الشعلة، والنص ـ التدفّق، واقتصاد الأحداث. ويُترجم إلغاء الماهية بتبدلات مرافقة: التهجير، ومفعول موبيوس ـ الذي ينظم الحلقة المستمرة من الداخل ومن الخارج ـ وتجميع العناصر الخاصة، والدمج الذاتي المعاكس لعناصر عامة. وقد درست بالتفصيل هذه الظاهرة المتمثلة في العبور إلى الجماعة وعودة المشترَك إلى الفردي في الفصلين السابقين في موضوع افتراضان الذكاء.

فلنُسَمِّ الشخصنة تدخّل ترتيبات تقانية ورمزية واجتماعية في آلية العمل النفسي والجسدي الفردي. وفي المقابل، يعرِّف التجسيد بكونه التدخل المشترك لأفعال ذاتية خلال عملية بناء عالم مشترك. فالشخصنة والتجسيد هما إذًا حركتان مكمّلتان للافتراضان.

وإذا أخذنا بالاعتبار ما يفعله الشخص والغرض فإن كليهما ليسا بمادة، ولكنهما عقدتان متموجتان لأحداث تتموضع على السطح

البيني، ويشمل بعضها بعضًا بشكل متبادل. وعلى الرغم من التسارع الحالي للافتراضان، فإنّه لا يعدّ ظاهرة حديثة. وكما حاولتُ أن أبيّن سابقًا عند تحليل تطورات اللغة والتقنية والمؤسسات الاجتماعية المركّبة، فإن الجنس البشري قد تكوَّن في الافتراضان وبه. ويمكن تحليل السيرورة الافتراضية من خلال عمليات:

- «نحويّة»: تقطيع عناصر افتراضية، تقسيمات مقطعيّة، تمفصل مزدوج.
- «جدلية»: استبدالات، وضعية تراسلات، عمليات تضاعف جذمورية.
- «بلاغية»: ظهور عوالم مستقلة، خلق ترتيبات لرموز وأشياء وكائنات في استقلال عن أي مرجعية تستند إلى «حقيقة» مسبقة، وفي استقلال عن أي نفع. وبواسطة هذه العمليات البلاغية يتوصل الافتراضان إلى خلق أفكار أو أشكال جديدة، وتشكيل هذه الأفكار وإعادة تشكيلها، وانبثاق «طرق» مبتكرة، وازدياد آلات الذاكرة، وتطور أنظمة العمل.

إنّ هذا الكتاب مخصص للافتراضان، أي أنه معاكس للتفعيل ولمختلف الحركات والعمليات التي تؤدي إلى الافتراضي. إلّا أن الواقعيّ، والممكن، والحالي، والافتراضي، يكمل بعضها بعضا، وتمتلك استحقاقًا أنطولوجيًا متكافئًا. ولا نهدف إلى وضع الافتراضي في مواجهة أنماط الوجود الأخرى التي لا يمكن عزل بعضها عن بعض، ذلك أنّها تشكل معًا نوعًا من الجدلية الرباعية القطب، وسنقوم

الآن بدراستها. وقبل أن نبدأ، أريد مع ذلك تبرير عنوان هذا الفصل. إن عبارة الرباعيّ(*) قد صاغها بويس (Boèce) في القرن السادس الميلادي للإشارة إلى الدراسات العلمية التي تلي الثلاثي (النحو والجدلية والبلاغة) وهي الحساب والهندسة الفراغية والموسيقى وعلم الفلك. وكانت «كليات الفنون» في القرون الوسطى في أوروبا تتبع هذا البرنامج الدراسي المكون من الأنموذجين الثلاثي والرباعي ـ وهما أعمدة الحكمة السبعة ـ لعدة قرون. ولنعد بعد هذه العطفة الفيلولوجيّة اللغوية، إلى موضوعنا حول العلاقات بين الممكن والواقعيّ (أو الحقيقيّ) والحالي (أو الفعليّ) والافتراضي.

أنماط الوجود الأربعة

للممكن والافتراضي ميزة مشتركة حتمًا تفسر الخلط المتكرر بينهما: كلاهما كامن وغير ظاهر. إنهما يعلنان عن مستقبل ما أكثر من كونهما يهَبان حاضرًا. أمّا الواقعيّ والفعليّ، في مقابل ذلك، فهما واضحان أو ظاهران. إنّهما يستخفان بالوعود، وهما موجودان هنا بالتأكيد. فكيف يمكننا الآن أن نفهم الشرخ الكائن بين الممكن والحقيقي من جهة، والافتراضي والفعليّ من جهة أخرى؟

استنادًا إلى جيل دولوز، أوردت في الفصل الأول أنّ الحقيقي يشبه الممكن، أمّا الفعليّ، فإنّه يردّ على الافتراضي. إنّ الافتراضي في جوهره إشكالي، وهو بمثابة حالة شخصية، أو تشكيلة دينامية لنزعات، وقوّى، وغائيّات، وقيود، يقوم التفعيل بحلها. أمّا التفعيل

(*) الرباعيّ: Quadrivium.

فهو حدث بكلّ معنى الكلمة. إنّه إنجاز فعل لم يكن محددًا سلفًا، وتغيير على أثر ذلك للشكل الدينامي الذي يتّخذ فيه معنًى ما. وحين يرتبط الافتراضيّ بالفعليّ فإنّه يحيي جدلية الحدث، والسيرورة، والكائن باعتباره خليقة.

أمّا التحقيق في مقابل ذلك، فإنّه ينتقي ممكنات محددة ومعرّفة مسبقًا. ولنا أن نقول إنّ الممكن شكل يمنحه التحقيق مادة. ويميز هذا الارتباط بين الشكل والمادة قطبًا للماهية يقابل قطب الحدث ويضادّه.

وعلى هذه الشاكلة، نحصّل جدولًا بسيطًا ذا أربعة مواضع، يتقاطع فيها عمودا الكامن والظاهر مع مصفوفتي الماهية والحدث. ويتّخذ كلّ من الممكن والواقعيّ والافتراضي والفعليّ مواقعه طبيعيًا في الخانات الخاصة به. وينشر كل واحد بمفرده طريقة وجود مختلفة.

إنّ الواقعيّ والماهية والشيء تبقى أو تقاوم. وينطوي الممكن على أشكال غير ظاهرة ما زالت تنامُ: إنّها تختبئ في الداخل، وهذه التحديدات ملحّة. إنّ الافتراضي كما تم شرحه بإسهاب في هذا الكتاب غير موجود هنا، ذلك أنّ جوهره كامن في خروجه: إنه موجود. وأخيرًا، يحدث الفعلي، الذي هو تجلّ للحدث، وتدعى عملية تجلّيه ظهورًا.

	كامن	ظاهر
مادة	ممكن (يلح)	واقعيّ (يبقى)
حدث	افتراضي (يوجد)	فعليّ (يحدث)

تتداخل طرق الوجود هذه في ما بينها باستمرار، ومن هنا ورد تعريف الحركات الأربع أو التحولات الرئيسية، ويخصّ كل واحد من هذه التحوّلات أشكالًا مختلفة من السببية والزمنية. وسأقترح الآن موازنة بين الرباعي الأنطولوجي والأسباب الأربعة عند أرسطو. ها هي أنماط السببية التي لاحظها أرسطو، مُوضّحة بشكل سريع من خلال تمثال. يشير السبب المادي إلى الرخام، وينطبق السبب الشكلي على تقاطيع الكوروس(*) الكامنة في الحجر أو في روح النحات قبل أن تتلألأ تحت شمس ديلوس(**)، والنحات نفسه، وسيط الفعل، هو السبب الفاعل، وأخيرًا يحيل السبب النهائي للتمثال إلى استخدامه ونفعه: عبادة أبولون مثلًا.

ويمكن تشبيه التحقيق، كما اقترحنا سابقًا، بالسببية المادية: إنه يغذي بالمادة شكلًا موجودًا سابقًا. ويمثّل التحقيق بشكل موازٍ، زمنية

(*) كوروس: (Kouros) يشكّل تمثال «كوروس» مع توأمه المؤنّث «كوريه» عماد فن النحت الإغريقي القديم في أكروبوليس أثينا. وقد قُدِّم هذان التمثالان في القرن السادس قبل الميلاد، قربانًا لـ «أثينا»، إلهة المدينة. وصمّم تمثال كوروس على هيئة شابٍ عاري الجسد، متين البنية. أما العناصر الزخرفية فهي تنتمي إلى منظومة التزيين في شرق اليونان حيث كان الفنانون متأثرين بالفن الأيوني.

(**) ديلوس: (Délos) هي إحدى الجُزر اليونانيّة الواقعة ضمن أرخبيل سيكلاديز على بعد عشرة كيلومترات جنوب غرب ميكونوس، وهي أصغر جزر الأرخبيل، وفيها تشكلت الأساطير القديمة، وتمتعت الجزيرة بمكانة مُقدسة لدى اليونانيين القدامى لألف عام على أقل تقدير، وهي أكثر المواقع التاريخيّة أهمية على مستوى اليونان، ويعتقد اليونانيّون القدامى أنّها مهد أبولو وأرتميس، وملجأ زيوس. ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد صارت ديلوس مقصدًا للحجيج.

خطية، وميكانيكية، وحتمية. وبتبديده النهائي الطاقة القابلة للاستخدام أو الموارد المتاحة، فإن التحقيق يلحق المبدأ الثاني للدينامية الحرارية، والتي بحسبها تكون زيادة درجة التعادل الحراري في نظام مغلق أمرًا مفروغًا منه. إنّ الزمنية المحققة تستهلك الكمون وتخفضه.

ويمكن تشبيه التعزيز الكموني أو السبب الصوري، المندفع من الحقيقي إلى الممكن، بارتفاع تيار الأنتروبيا. وينتج التعزيز الكموني النظام والمعلومة ويعيد تشكيل الموارد والاحتياطات الطاقوية. وتمكن مقارنة عمليته بعملية شيطان تخيّله الفيزيائي جيمس كليرك ماكسويل (James Clerk Maxwell)، الذي كان قادرًا على قلب قانون الأنتروبيا المتزايدة. لا يسمح هذا الشيطان الصغير الخيالي الذي وُضِعَ بالقرب من كوة تفصل بين حجرتي وعاء مغلق ومليء بغاز فاتر أيضًا، بالمرور إلى إحدى الحجرتين إلّا للجزيئات الأسرع. وبهذه الطريقة وبالكاد من دون استهلاك للطاقة، وخلال فترة من الزمن، نحصل على حجرة مليئة بالغاز الساخن وأخرى مليئة بالغاز البارد. إنّ الفرق الذي حصل بهذا الشكل هو نفسه مصدر الطاقة الكامنة. لقد تمت محاربة الفوضى أو المزيج غير المتمايز بما كان للشيطان من قدرة على الفرز أو الانتقاء الدقيق، وبجهاز يؤمن عدم معكوسية العمليات المذكورة (الكوة). إنّ تعزيز الكمون يقوم تقريبًا بعمل شيطان ماكسويل، ذلك أنّ إرساء النظام على المستوى الجزيئي أو إعادة تشكيل الكمونات الطاقوية هما الشيء نفسه. إنّ الممكن، أو فرق الكمون، هو تمامًا عبارة عن شكل أو بنية أو احتياطي.

ويندرج كل من التحقيق وتعزيز الكمون في نطاق الانتقاء: أي اختيار جزيئي من بين الممكنات للتحقيق. فرز جزيئي وإعادة تكوين شكل لتعزيز الكمون. وأميز هنا بين نظام الانتقاء هذا ونظام تبدل آخر يتعلق بالخلق والصيرورة، وينتمي إليه التفعيل والافتراضان.

يبتكر التفعيل حلًّا لمسألة مطروحة من الافتراضي. ولا يكتفي التفعيل وهو يجري ذلك، بإعادة تشكيل الموارد أو وضع شكل تحت تصرف آلية التحقيق. والتحقيق يبتكر شكلًا. إنه يخلق معلومة جديدة تمامًا. إننا نضع السببية الفاعلة إلى جانب التفعيل، لأن العامل أو النحات أو الصانع الخلاق، باعتباره فردًا حيًّا ومفكّرًا، لا يمكن اختزاله إلى مجرد منفّذ، إنه يسند معنى ويرتجل ويحل المشاكل. إن زمنية التفعيل هي زمنية السيرورة. وفي ما وراء ميل القصور الحراري (التحقيق) وعودته (التعزيز)، يرسم الزمن الخلاق للتفعيل قصة، ويهبنا عند القراءة مغامرة للمعنى يعاد طرحها بشكل دائم.

وأخيرًا، ينتقل الافتراضان من الفعل ـ هنا والآن ـ إلى المسألة، وإلى عُقدِ القيود والغائيات التي تلهم الأفعال. وإذّاك نصنف السببية الغائية، مسألة الـ ـ لماذا، ضمن الافتراضان. إنّ الافتراضان يتحرك في زمن الأزمان، على اعتبار أنه يوجد من الزمنيات بقدر ما يوجد من المسائل الحيوية. ويخرج الافتراضان من الزمن ليُغْني الأزل. إنه مصدر الأزمان والعمليات والتواريخ لأنه يقود التفعيلات من دون تحديدها. ويبتكر الافتراضان لكونه خلّاقًا بامتياز، أسئلة ومسائل وترتيبات مولدة لأفعال وخطوط عمليات وآلات للمستقبل.

التحولات	التعاريف	الصنف	السببية	الزمنية
تحقيق	انتخاب، انخفاض في الكمون	انتقاء	مادية	آلية
تعزيز الكمون	إنتاج موارد	انتقاء	صورية	عمل
تفعيل	حل مسائل	استحداث	فاعلة	عملية
تحول افتراضي	ابتكارمسائل	استحداث	غائية	أبدية

إنّ التحولات الأربعة متمايزة هنا من الناحية المفاهيميّة. ولو كان لنا أن نحلل ظاهرة ما ملموسة، كما فعلنا في هذا الكتاب أحيانًا، فسنكتشف مزيجًا متشابكًا من الأسباب الأربعة، وأنماط الوجود الأربعة، والانتقالات الأربعة من طريقة وجود إلى أخرى. ولو كبحنا الافتراضان فسيستقر الاستلاب، ولن تنشأ الغايات مجدّدًا، ولن يكتمل التكوين المتباين: تتحول آليات حية ومفتوحة ومستقبلية فجأة إلى آليات ميتة. ولو أوقفنا التفعيل والأفكار، لأصبحت الأفكار والغايات والمسائل عقيمة فجأة، وعاجزة عن بلوغ الفعل الإبداعي. إنّ تثبيط التعزيز يؤدي بشكل أكيد إلى اختناق العمليات الحية وإخمادها ونضوبها. وأخيرًا، لو منعنا التحقيق فستفقد العمليات قاعدتها وركيزتها ونقطة استنادها، وتتجرد من الجسد. إنّ كل التحولات ضرورية ويكمل بعضها بعضًا.

أخلاط

ليس التعارض بين الممكن والافتراضي محسومًا بعد، وهو يتخلّق مع كل تمييز جديد، وهذا التعارض أبعد من أن يشكل أساسًا

لتصنيف حصري. وقياسًا إلى ذلك، حين نقطع مغناطيسًا إلى قسمين، فإننا لا نحصل على مغناطيس يدفع وآخر يجذب، ولكن على مغناطيسين كاملين، لكل منهما قطب إيجابيّ وآخر سلبيّ. فمثلًا، يتعلق السندان بقطب الحقيقة (لوجود علاقة بالمادة أو بالشيء الذي «يقاوم») بينما الجملة «في العام 2010، كل السيارات التي تتجول في المدينة ستكون كهربائية» (تتعلق بالظهور) ستكون متعلقة بقطب الحالي. ولكنني إن رغبت، فبإمكاني تقسيم الجملة إلى عنصرين: سؤال ضمني («هل سنستمر حقًا في ترك أنفسنا نتسمم بهذه الطريقة؟») والاقتراح الذي يجيب عن هذا السؤال (لا، لأنه في عام 2010 ...إلخ). إنّ السؤال هنا افتراضي، أمّا الاقتراح فمعزّز للكمون، لأنه يستطيع أخذ عدة قيم محددة مسبقًا للحقيقة. وعند استمرارنا في التجزئة، نستطيع أيضًا تقسيم الاقتراح بإبراز فرضية تعتبر افتراضًا: «في العام 2010، كل السيارات ...إلـخ.» وبمثابة حكم : «هذه الفرضية صحيحة»، وهو نوع من التحقيق. والأمر نفسه بالنسبة إلى السندان. يكون السندان افتراضيًا كركيزة لعمل ابتكاري وتحويلي، ويكون كمونيًا كاحتياطي من الحديد وأداة قابلة للاهتراء ...إلخ.

إنّ الممكن والحقيقي والحالي والافتراضي أربعة أنماط وجود مختلفة، ولكنها تعمل دومًا بعضها مع بعض تقريبًا في كل ظاهرة ملموسة نقوم بتحليلها. وتشغّل كل حالة حية نوعًا من المحرك الأنطولوجي بأربعة أزمنة، وبالتالي، لا ينبغي أبدًا «تصنيفها» مجتمعة في إحدى الخانات الأربع.

إنني أكتب الآن على حاسوبي بمساعدة برنامج لمعالجة النصوص. ومن الناحية الميكانيكية الصرف، تحدث جدلية بين الكموني والحقيقي، لأن إمكانات البرنامج والآلة تتحقق، ولأن هناك نصًّا يُعرَض (يتحقق) على الشاشة وهو ناجم عن سلسلة كاملة من الترميزات والترجمات المحددة جيدًا. ومن جهة أخرى، تعزز التغذية الكهربائية كمون الآلة، وأنا أعزز كمون النص بإدخال رموز معلوماتية بواسطة لوحة المفاتيح.

إنّني أفعّل بشكل موازٍ مسائل وأفكارًا وإحساسات داخلية وقيودًا كتابية عند تحرير هذا النص، وفي المقابل، فإن إعادة قراءة هذا النصّ تؤدي إلى تعديل الفضاء الافتراضي للمعاني الذي يجيبه (هذا ما يشكل إذًا افتراضانًا).

ونلاحظ أن عمليات التعزيز الكموني والتحقيق لا تأخذ معنًى إلّا بجدلية التفعيل والافتراضان. وفي مقابل ذلك، تتحكم أنماط تحقيق النص وتعزيزه (المظهر التقني الصرف أو المادي إذا شئنا) وتؤثر بقوة في إنشاء رسالة ذات معنى (جدلية الافتراضان والتفعيل). وبعد التقاطها من الحقيقي، يتم تشييء جدلية الافتراضي والفعلي. ويتم تجسيد الممكن والحقيقي أو شخصنتهما بعد خضوعهما لعمليات الافتراضان والتفعيل. وهكذا، لا يكف قطب الأحداث عن إشراك قطب المضمون: تعقيد المسائل وإزاحتها عن مواضعها، وتركيب آلات مشخصِنة، وبناء أغراض وتداولها. وبهذا الشكل يفكر العالم في داخلنا. ولكن، في مقابل ذلك، يطوِّق قطب المضمون قطب الأحداث ويحطُّ منه ويثبته ويتغذى منه: تسجيل، مأسسة، تشييء.

	حدث مطوَّق	مادة مطوَّقة
حدث مطوَّق	افترضان تفعيل	شخصنة تجسيد
مادة مطوَّقة	تشيء مأسسة	تحقيق تعزيز كمون

ثنائية الحدث والمضمون

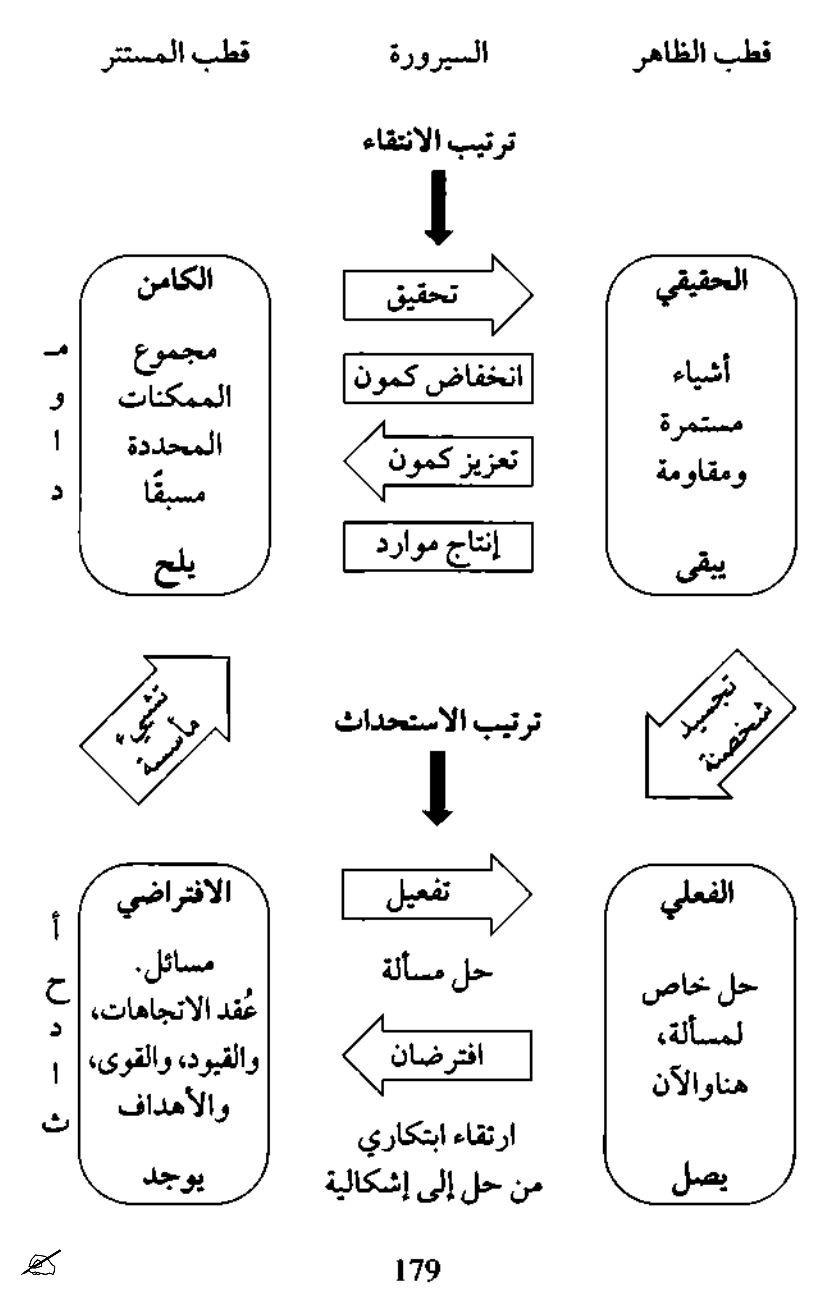
قد تغطي الثنائية الظاهرة بين المضمون والحدث وحدة عميقة. وفي فلسفة وايتهيد، توسم المصطلحات النهائيّة في التحليل الفلسفي ـ وهي على وجه الحقّ أحداث ـ بكونها مناسبات حاليّة. وما هذه المناسبات الحالية إلّا نوع من الوحدات الفردية الانتقاليّة،أي أنّها عمليات إدراك أساسية، غير واعية عادة، تتلقى بعض المعطيات من المناسبات الحالية السابقة، فتفسرها وتنقل إلى الآخرين ملخصها وتختفي. ومهما كنا مستعدين للقبول بأن المناسبات الحالية هي آخر كلمة «حدثية» للحقيقة، فإننا مرغمون بالرغم من ذلك على أن نلاحظ أنه يوجد، على الأقل ظاهريًّا، موادّ مستمرة وأشياء مستدامة. لقد قام وايتهيد بحل المشكلة بالإشارة إلى تجربتنا في الأشياء المستدامة حين تكلم عن مجتمعات مترابطة بالأحداث، تتشارك في ما بينها ميزات خاصة وتتناقلها. فالحجر مثلًا، هو مجتمع مناسبات حالية متشابهة، تتوارث خطيًّا الواحدة من الأخرى معطياتها وطريقتها في الاستجابة. وهذا ما يفسر أنه خلال فترة وجيزة يحافظ الحجر تقريبًا على اللون نفسه، والصلابة ذاتها ...إلخ.

ولكي نرسي جسرًا بين المادّة والحدث، يمكننا أن نفترض أن الحدث نوع من مادة جزيئية، مصغرة ومجزأة إلى حدّ الفعل الدقيق. وليست المادة في مقابل ذلك، إلّا الشكل الظاهر لمجتمع أحداث، ولمجموعة مترابطة من التجارب الصغيرة الملتصقة إجمالًا بصورة «الشيء»: أي بصورة الحدث الجزيئي بالمحصّلة.

ومن جهة أخرى، ألّا يمكن تفسير الأشياء الأكثر ثباتًا، مهما كانت درجة استدامتها، على أنها أحداث في ضوء مدة زمنية تتجاوزها، تمامًا كوجود الجبال على مقياس تاريخ الأرض؟ يمكن المنطق طبعًا أن يكون معكوسًا: ما هو الحدث سوى كونه زوال مادة أو ظهورها، بل حتى كونه مادة مبدِّدة؟

ربما وجب اعتبار ثنائية المادة والحدث مثل الين واليانغ[*] في الفلسفة الصينية التقليدية: إذ يوجد انتقال، وتحول دائم من طرف إلى طرف. ويعبر كل طرف عن وجه لا يمكن استبعاده وهو متمم لظواهر مثل الموجة والجزيء في الفيزياء الكمية.

(*) يرتكزُ الفكرُ الصيني على نظرية الين واليانغ في تفسير كلِ الوجودِ الطبيعي والمجتمعي والإنساني وتعليلِه وفهمِه. ويمكنُ القول إنّ الين واليانغ يمثلان، في الفكر الصيني، الوَحدةَ في ما وراء ثنائيتهما الظاهرة. فاليانغ يمثل العنصرَ الإيجابي الفعّال القادر على إنتاج أي شيء، وهو يرمز إلى العنصر السماوي الذكوري المتحرك المتمثل في الشمس، والضوء، والحرارة، والحياة. أمّا الين فهو يمثل العنصرَ المنفعل الساكن والسلبي والأنثوي اللين ويتمثل في: القمر، والأرض، والظلمة، والبرودة، والموت. وعلى هذا النحو، تعود كل حقائقِ الوجود الكونية والطبيعية والاجتماعية والإنسانية في النتيجة إلى التعارضِ أو الاتحادِ بين عنصر الذكورة اليانغ وهو الموجب الحامل للحركة، وعنصر الأنوثة الين وهو السالب الساكن المتلقي لفعل الحركة، أي الذي يستجيب بردّة فعل معيّنة لليانغ.



قطب المستتر
السيرورة
قطب الظاهر
ترتيب الانتقاء
الكامن
مجموع
الممكنات
المحددة
مسبقًا
يلح
تحقيق
انخفاض كمون
تعزيز كمون
إنتاج موارد
الحقيقي
أشياء
مستمرة
ومقاومة
يبقى
مـ
و
ا
د
تشيؤ، مأسسة
ترتيب الاستحداث
تجسيد، تشخصن
الافتراضي
مسائل.
عُقد الاتجاهات،
والقيود، والقوى،
والأهداف
يوجد
أ
ح
د
ا
ث
تفعيل
حل مسألة
افتراضان
ارتقاء ابتكاري
من حل إلى إشكالية
الفعلي
حل خاص
لمسألة،
هناوالآن
يصل

الخاتمة:
أهلًا بكم في دروب الافتراضي

أحبّ ما كان هشًا وعابرًا واستثنائيًا وشهوانيًا. وأقدّر الكائنات والأماكن الفريدة، التي لا يمكن تعويضها والأجواء المرتبطة دومًا بمواقف ولحظات. إنني على قناعة بأن قسمًا رئيسًا من الأخلاق يقوم بكل بساطة على تقبل الوجود في العالم وعدم الهروب والتواجد هنا للآخرين وللذات. غير أنّ موضوع هذا الكتاب كان الافتراضان. ولذا، عالجت موضوع الافتراضان. ولكنّ هذا لا يقتضي نسيان الوجوه الأخرى للكائن، وأحثّ القارئة والقارئ على عدم إهمالها، إذا اقتضى الأمر ذلك طبعًا. ولأن الفعلي ذو قيمة كبيرة على وجه الحقّ، فقد وجب علينا في عجل أن نفكر وأن نؤقلم الافتراضان الذي يزعزعه. إنّني أعتقد أن المعاناة من تحمل الافتراضان من دون فهمه تُعدّ أحد الأسباب الأساسيّة للجنون والعنف في وقتنا الحاضر.

أردت أن أبين في هذا الكتاب أنّ الافتراضان كان الحركة التي تَشكَّل بفضلها جنسنا وسيستمر بالتشكل. إلّا أنّنا نعيش هذا الافتراضان غالبًا كما لو أنّه غير إنساني، وأنّه يجرد من الصفة الإنسانية، وأنه كواحدة من الغيريات القائمة الأكثر إثارة للخوف، ولقد حاولت أنسنته حتى بالنسبة إلي، حينما قمت بتحليله والتفكير فيه والتغني به أحيانًا.

إنّ عددًا من المفكرين الفخورين بدورهم «النقدي» يعتقدون اليوم أنهم يقومون بعمل مشرّف بنشرهم البلبلة والذعر في موضوع الحضارة الناشئة. أمّا بالنسبة إلي، فقد أردت من خلال العمل على ترجمة المفاهيم والاندماج الثقافي وبنائها، أن أرافق بعض مُعاصِريَّ في جهودهم كي نعيش عيشة أقلّ خوفًا واستياءً. وأردت، حينما رسمت خريطة الافتراضي، أنّ أمدّ بها نظرائي من أولئك الذين يحاولون بصعوبة كبيرة مثلي أن يصبحوا لاعبين مؤثرين.

لا علاقة للافتراضية أبدًا بما يقال عنها في التلفزيون، ولا علاقة لها بعالم مزيف أو خيالي أيضًا. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ الافتراضان هو دينامية العالم المشترك، وهو الذي نتقاسم الحقيقة من خلاله. ولا تهدف الافتراضية إلى تطويق مملكة الكذب، بل هي على وجه التحديد نمط الوجود الذي تنبثق منه الحقيقة والكذب على السواء. وليس ثمّة عند النمل أو السمك أو الذئاب صواب وخطأ، بل كلّ ما يوجد إنّما هو آثار أقدام أو طعم فقط. ولا تملك الحيوانات فكرًا افتراحيًا. ولا يمكن فصل الحقيقة والزيف عن الطروحات المترابطة، وكل طرح ما يتضمن سؤالًا معيّنًا. ويرافق السؤال توتر ذهني غريب غير معروف عند الحيوانات. وهذا الفراغ الفاعل، هذا الفراغ الأساسي هو جوهر الافتراضي. إنني أفترض أن كل قفزة إلى نمط جديد من الافتراضان، وكل اتساع لحقل المسائل، يفتح فضاءات جديدة للحقيقة وبالتالي للكذب أيضًا. إنني أستهدف الحقيقة المنطقية التي تعتمد على اللغة والكتابة (وهما أداتان كبيرتان للافتراضان)، كما أستهدف أشكالًا أخرى من الحقيقة، قد تكون أكثر

أساسية، يعبر عنها الشعر والفن والدين والفلسفة والعلم والتقنية. وأستهدف أخيرًا الحقائق المتواضعة والحيوية التي يلاحظها كل شخص في حياته اليومية. ولعلّ من أكثر الطرق المثيرة للاهتمام من بين الطرق المفتوحة على الأبحاث الفنية المعاصرة، هي اكتشاف الأشكال الجديدة للحقيقة ودراستها، وهي مدفوعة بشكل مبهم من دينامية الافتراضان.

يمكن الفن أن يجعلنا ندرك ونتفاعل مع القفزة السريعة إلى الافتراضان التي ننجزها غالبًا كرْهًا وبشكل أعمى، غير أنّ الفن يمكنه أيضًا أن يتدخل أو يتداخل في السيرورة. أليس صحيحًا أنّ الهندسة والتصميم الأساسيان في عصرنا هما هندسة وتصميم الجسم التشعبي، والقشرة الدماغية التشعبية، والاقتصاد الجديد للأحداث والوفرة، وفضاء المعارف المتقلب؟ لم يكن يُنتظر من الفنانين أن يعبّروا بأنفسهم إلّا خلال فترة قصيرة جدًّا من تاريخ الفن. ويعود عدد من الأبحاث الجمالية المعاصرة إلى ممارسات قديمة تقوم على إعطاء قوام، ومنح صوت للإبداعية الكونية. ولا يتعلّق الأمر بتفسير الفنان للعالم بقدر ما يتعلق بإتاحة المجال للعمليات البيولوجية الحالية أو المفترضة، وللبنى الرياضية، وللديناميات الاجتماعية أو الجماعية بأن تتحدث مباشرة. لم يعد الفن هنا يقوم على تأليف «رسالة»، ولكن على تشغيل آلة ترتيب تتيح للقسم الصامت من الإبداعية الكونية إسماع صوتها. لقد ظهر نمط جديد لفنان لم يعد يروي قصة. إنه مهندس لفضاء الأحداث، ومهندس لعوالم مليارات القصص التي ستحدث. إنه ينحت في صلب الافتراضي.

إنّني أتحدّث عن الفن والجمالية لأنني، ككثير من الناس، أصاب بالذهول حينما أنظر إلى السلطة السياسية التقليدية. ولكن الأمر يتعلق في النهاية بتعزيز حرص جمالي، ومعايير جمالية صرف (ذكرناها للتو)، وروح خلاقة ضمن العمل السياسي نفسه، كما في الهندسة الأكثر «تقنية صرفًا» أو ـ لمَ لا؟ ـ في الممارسات الاقتصادية.

ما الذي أوجب على هذا الفن المُستعرض أن يتدخل بشكل فاعل في دينامية الافتراضان؟ لأن التفعيل يؤدي غالبًا إلى التشيىء، ولأن التكوين المتباين يمكن أن يتحول إلى استلاب، ولأن ابتكار سرعة جديدة يتحول بسهولة إلى تسارع، ولأن الافتراضان يتحول أحيانًا إلى إقصاء للمفعّل، ولأن التشارك الذي هو سيرورة الافتراضان المميزة، قد تميل كفته غالبًا إلى المصادرة والإقصاء. إنّنا نحتاج إلى حساسية الفنان لندرك هذه الاختلافات والفروق منذ بدايتها في الحالات الملموسة. وحين يقوم الممكن بسحق الافتراضي، وحين تقوم المادة بخنق الحدث، يكون دور الفن الحي (أو فن الحياة) هو إعادة التوازن.

إن قوة الافتراضان المعاصر وسرعته كبيرتان لدرجة أنهما تنفيان الكائنات عن معارفها الخاصة، وتبعدانها عن هويتها ومهنتها وبلدها. يُدفع بالناس إلى الطرقات ويتزاحمون في البواخر ويتدافعون في المطارات. وآخرون أكثر عددًا، مهاجرون فعليون من الشخصنة، يُرغمون على حياة البداوة الداخلية. كيف نرد على هذه الحالة؟ هل يجب علينا أن نقاوم الافتراضان، وأن نتشبّث بالمناطق والهويات

المهددة؟ هذا هو الخطأ القاتل الذي ينبغي تجنبه بشكل خاص. ذلك أن النتيجة لا يمكن أن تكون بعد فترة إلّا تفجر العنف الشرس، تمامًا كتلك الهزات الأرضية المدمرة الناجمة عن عدم مرونة وكبح استمرّا فترةً طويلة لتلك الصفيحة من القشرة الأرضية. ينبغي عوضًا عن ذلك أن نحاول مرافقة الافتراضان وأن نسند إليه معنى في الوقت نفسه الذي نبتكر فنًّا جديدًا في الضيافة. ويجب أن يصبح أعلى ميسم أخلاقي عند البدو في عصر التهجير الكبير، بعدًا جديدًا جماليًّا، بل السمة الخاصة بالإبداع. وعلى الفن، وبالتالي الفلسفة والسياسة والتقانة التي يلهمها الفن ويخترقها، أن يواجه الافتراضان الفاسد الذي يُقصي ويُسقِط الأهلية بافتراضان يعيد التأهيل ويقوم بالضيافة والإدماج.

أنصتوا بآذان صاغية إلى نداء هذا الفن، وهذه الفلسفة، وهذه السياسة المذهلة: «أيتها الكائنات البشرية، في هذا المكان وكل مكان، يا من جرفتكم حركة التهجير الكبيرة، يا أيها المزروعون في الجسم التشعبي للإنسانية والذين يعكس نبضكم نبضاته العملاقة، يا من تفكرون مجتمعين ومبعثرين وسط القشرة الدماغية التشعبية للأمم، يا من من تعيشون مأخوذين وممزقين في هذا الحدث العالمي الهائل الذي لا يكف عن العودة إلى نفسه وإعادة خلقه، يا من قفزتم أحياء في الافتراضي، يا من تم أخذكم في هذه القفزة الهائلة التي أنجزها الجنس البشري إلى ما قبل تدفق الوجود، نعم، في قلب هذه الزوبعة الغريبة، إنكم في بيوتكم. أهلًا بكم في المسكن الجديد للجنس البشري. أهلًا بكم في دروب الافتراضي!»

ثبت المصطلحات

عربي- فرنسيّ

أتمتة	Automatisation
أثر	Effet
إحداثيّات	Coordonnées
إدراك	Cognition
إزالة الوساطة	Désintermédiation
استلاب	Aliénation
إسقاطات	Projections
افتراضيّ	Virtuel
افتراضيّة	Virtualité
افْتِرْضان	Virtualisation
أكسيولوجيا	Axiologie
إلغاء الطابع المادّي	Dématérialisation



Possibilité	إمكان
Potentialisation	إمكانويّة
Tropisme	انتحاء
Ontologie	أنطولوجيا
Intériorité	باطنية
Hominisation	بَشْرَنة
Infostructure	بنية معلوماتيّة
Bureaucratie	بيروقراطيّة
Disqualification	تجريد من الأهلية
Schizoanalyse	تحليل انفصامي
Pragmatique	تداوليّة
Réification	تشيىء
Polymorphie	تعدّد الأشكال
Polyéthie	تعدّد السلوكات
Technoscience	تقانة علميّة
Intensifications	تكثيفات



Genèse	تكوين
Hétérogénèse	تكوين متغاير
Flamboiement	توهّج
Trivium	الثلاثيّ
Dialectique	جدليّة
Rhizomatique	جذموريّ
Hypercorps	جسم تشعّبي
Evénementiel	حدَثيّ
Création	خليقة
Vectorisation	دفع موجّه
Quadrivium	الرباعيّ
Diagrammes	رسوم بيانية
Numérisation	رَقْمَنة
Idéogrammes	رموز فكرية
Primates	رئيسات
Temporalité publique	زمانية عامة



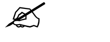
Processus	سيرورة
Sémiotique	سيميائية
Utopie	طوباويّة
Extériorité	ظاهرية
Transsubstancié	عابر للمادّة
Déréalisation	فصل عن الواقع
Cyberespace	فضاء سيبرانيّ
Phénoménologie	فينومينولوجيا
Créature, Organisme	كائن
Fractalisation des répartitions	كسرانية التوزيعات
Existence	كينونة
Irréversibilité	لاانعكاسيّة
Déterritorialisation	تهجير
Perceptions	مدارك/ إدراكات
Continuum	مسترسل
Clone	مستنسَخ

Postulat	مسلّمة
Opérateur	مُشغّل
Curriculum	منهاج
Vecteur	ناقل
Hypertexte	نص تشعبي
Théorie Catastrophiste	نظريّة كوارثيّة
Megapsychisme	نفسانية عُظمى
Macropsychisme	نفسانية كبرى
Exode	خروج
Opulence	وفرة

ثبت المصطلحات

فرنسيّ - عربي

Aliénation	استلاب
Automatisation	أتمتة
Axiologie	أكسيولوجيا
Bureaucratie	بيروقراطيّة
Clone	مستنسَخ
Cognition	إدراك
Continuum	مسترسل
Coordonnées	إحداثيّات
Création	خليقة
Créature, Organisme	كائن
Curriculum	منهاج
Cyberespace	فضاء سيبرانيّ



Dématérialisation	إلغاء الطابع المادّي
Déréalisation	فصل عن الواقع
Désintermédiation	إزالة الوساطة
Déterritorialisation	تهجير
Diagrammes	رسوم بيانية
Dialectique	جدليّة
Disqualification	تجريد من الأهلية
Effet	أثر
Evénementiel	حدَثيّ
Existence	كينونة
Exode	خروج
Extériorité	ظاهرية
Flamboiement	توهّج
Fractalisation des répartitions	كسرانية التوزيعات
Genèse	تكوين
Hétérogénèse	تكوين متغاير



Hominisation	بَشْرَنة
Hypercorps	جسم تشعّبي
Hypertexte	نص تشعبي
Idéogrammes	رموز فكرية
Infostructure	بنية معلوماتيّة
Intensifications	تكثيفات
Intériorité	باطنية
Irréversibilité	لاانعكاسيّة
Macropsychisme	نفسانية كبرى
Megapsychisme	نفسانية عُظمى
Numérisation	رَقْمَنة
Ontologie	أنطولوجيا
Opérateur	مُشغّل
Opulence	وفرة
Perceptions	مدارك/ إدراكات
Phénoménologie	فينومينولوجيا

Polyéthie	تعدّد السلوكات
Polymorphie	تعدّد الأشكال
Possibilité	إمكان
Postulat	مسلّمة
Potentialisation	إمكانويّة
Pragmatique	تداوليّة
Primates	رئيسات
Processus	سيرورة
Projections	إسقاطات
Quadrivium	الرباعيّ
Réification	تشييء
Rhizomatique	جذموريّ
Schizoanalyse	تحليل انفصامي
Sémiotique	سيميائية
Technoscience	تقانة علميّة
Temporalité publique	زمانية عامة

Théorie Catastrophiste	نظريّة كوارثيّة
Transsubstancié	عابر للمادّة
Trivium	الثلاثيّ
Tropisme	انتحاء
Utopie	طوباويّة
Vecteur	ناقل
Vectorisation	دفع موجّه
Virtualisation	افْتِرْضان
Virtualité	افتراضيّة
Virtuel	افتراضيّ

مراجع مختارة مع تعليقات

AUROUX Sylvain, *La Révolution technologique de la grammatisation,* Mardaga, Liège, 1994.

تحليل علمي صارم لعمليات إظهار أعمال الاتصالات وشكلنتها لمؤرخ في علم اللغة.

AUTHIER Michel et Lévy Pierre, *Les Arbres de connaissances,* La Découverte, Paris, 1992.

كيف ندرج التمفصل المزدوج وحرية الافتراضي في إدراك المعارف. «أشجار المعارف» هي علامة تجارية مسجلة لشركة تريفيوم (TriVium).

AUTHIER Michel, *«Il ne manque que le ballon!»*, document photocopié de la mission Université de France, 1991, 4p.

نص مقتضب يحتوي على فكرة أشجار المعارف بصفتها «أشباه أغراض» في المجتمعات المعاصرة، ويعرض مخطّطًا لـ «مكافئ عام» للمعرفة.

BALPE Jean-Pierre, *Hyperdocuments, hypertextes, hypermédias*, Eyrolles, Paris, 1990.



كتاب أساسيّ تقليدي في موضوع النصوص التشعبية من تأليف أحد أفضل المختصّين الفرنسيين.

BATESON Gregory, *Vers une écologie de l'esprit* (2 vol.), Seuil, Paris, 1980.

BATESON Gregory, *La Nature et la Pensée*, Seuil, Paris, 1984.

غريغوري بيتسون، المختص في الأنتربولوجيا والسيبرانية والإبستيمولوجيا، كان من أوائل الذين فكروا في البعد «البيني» للنفسانية، وقد أثرت أعماله بشكل كبير في المدرسة المعاصرة للعلاج العائلي.

BERARDI Franco, *Mutazione e cyberpunk*, Costa & Nolan, Gênes, 1994.

تحليل مبتكر للطفرة الثقافية المعاصرة المرتبطة بتطور الفضاء السيبراني. يسلّط فرانكو بيراردي الضوء على التطور الجذري للعلاقة المعاصرة مع المعلومة.

DEBRAY Régis, *Manifestes médiologiques*, Gallimard, Paris, 1994.

دعوة لمراعاة الأبعاد «المادية» للأفكار والثقافة.

DE KERCKHOVE Derrick, *Brainframes. Technology, Mind and Business*, Bosh & Keuning BSO/ORIGIN, Utrecht, 1991.

مصنّف جيّد في «التقانة النفسية» من تأليف خَلَف مارشال ماك لوهان في جامعة تورونتو.

DE ROSNAY Joël, *L'Homme symbiotique*, Seuil, Paris, 1995.

شرح أخّاذ لظهور الذكاء الجماعي للإنسانية في شبكات الاتصال الرقمية. وفيه للأسف إفراط في الاستخدام الحصري للمجازات البيولوجية التي تمنع أحيانًا جويل دو روناي من أن يحدد بوضوح البعد الإنساني الصرف للذكاء الجماعي. من بيت النمل إلى الثقافة، إنّما الفرق بينهما درجة واحدة.

DELEUZE Gilles, *Différence et Répétition*, PUF, Paris, 1968.

تعلّمتُ من خلاله الفرق بين الممكن والافتراضي، وبخاصّة ما ورد في الصفحات 169 إلى 176.

DELEUZE Gilles et GUATTARI Félix, *L'Anti-Œdipe*, Minuit, Paris, 1972.

DELEUZE Gilles et GUATTARI Félix, *Mille Plateaux*, Minuit, Paris, 1980.

يُعتبر هذان الكتابان من بين أهم الأعمال الفلسفية في القرن العشرين. ونجد فيهما بشكل خاص شرحًا مطوّلًا لمفاهيم الجذمور والتهجير والتمييز بين العمليات المولية والجزيئية التي استخدمتها بإسهاب في عدة كتب لي.

DESCOLA Philippe, *Les Lances du crépuscule*, Plon, Paris, 1993.

دراسة جيدة عن ثقافة الجيفارو، حول الرأس المصغَّر للعدوّ كمؤشّر دلّت عليه الكرة.

EDELMAN Gerald, *Biologie de la conscience*, Odile Jacob, Paris, 1992. Réédité en poche au Seuil en 1994. Édition originale: *Bright Air, Brilliant Fire: on the Matter of Mind*, Basic Books, 1992.

النظرية الداروينية العصبية يشرحها أحد أقطابها، الحائز على جائزة نوبل في الطب.

ETTIGHOFFER Denis, *L'Entreprise virtuelle ou les nouveaux modes de travail*, Odile Jacob, Paris, 1992.

في موضوع العمل عن بعد والمشاريع على شبكة الإنترنت.

EUROTECHNOPOLIS INSTITUT, sous la direction de Gérard BLANC, *Le Travail au XXI^e siècle*, Dunod, Paris, 1995.

في موضوع الطفرات العصرية للعمل.

GOLDFINGER Charles, *L'Utile et le Futile. L'économie de l'immatériel*, Odile Jacob, Paris, 1994.

كتاب موثق بشكل ممتاز في موضوع الطفرة الحالية للاقتصاد. والفصل الذي كرستُه لافتراضان الاقتصاد مستوحًى منه. وبالرغم من ذلك، أعترضُ على مفهوم «اللامادية» الذي أرى أنه يتعلق بميتافيزيقا غير ملائمة لفهم التطورات الجارية.

GOODY Jack, *La Raison graphique*, Minuit, Paris, 1979.

GOODY Jack, *La Logique de l'écriture, aux origines des sociétiés humaines*, Armand Colin, Paris, 1986.



في الكتابين تحليل للتبدّلات الثقافية المرتبطة بالانتقال من الشفهية إلى الكتابة. والمؤلف عالم أنتربولوجيا كبير وصاحب مفهوم «التقانة الفكرية».

GUATTARI Félix, *Chaosmose*, Galilée, Paris, 1992.

نجد بشكل خاص في هذا الكتيّب نظامَ «العلاقات الأنطولوجية الأربع» (سبق أن تم تقديمه في الخرائط البيانية التحليلية الشيزية)، وهو مبني على تقاطع الممكن والحقيقي والفعلي والافتراضي.

	فعلي	افتراضي
ممكن	شِعَبٌ تقنية، أو علاقة ذات صلة بالآلة	عالم قيم ومرجعية، أو تعقيد غير ملموس
حقيقي	تدفق، أو العلاقة بين الطاقة والمكان والزمان	مناطق وجودية، أو تجسيد فوضوي

HEIDEGGER Martin, *Être et Temps* (traduction française de François Vezin), Gallimard, Paris, 1986. Première édition allemande: *Sein und Zeit*, 1927.

الوجود بصفته «الوجود هنا». ويعترض ميشيل سير على هذه الأنطولوجيا في كتابه أطلس.

HUITÉMA Christian, *Et Dieu créa l'Internet*, Eyrolles, Paris, 1995.

تبديد مرح للخرافات المتعلقة بشبكة الشبكات من أحد أحسن العالمين بها.



LATOUR Bruno, *La Science en action*, La Découverte, Paris, 1989.

كتاب أساسي تقليدي في الأنتروبولوجيا الجديدة للعلوم والتقنية. وكتاب لاتور يقرّب مفهوم «الجوال غير المتحرك» من مفهوم الغرض الذي أنشأناه في هذا الكتاب.

LATOUR Bruno, *La Clef de Berlin*, La Découverte, Paris, 1993.

دراسات في أنتروبولوجيا العلوم والتقنيات أجراها مختص ممتاز في هذا المجال. ويتطرق الفصلان الأول والثاني من الكتاب بشكل خاص إلى آليتي الاستبدال والجمع في الحدث التقني.

LEOPOLDSEDER Hannes et SCHÖPF Christine, *Prix Ars electronica 95, International compendium of the computer arts*, ORF, Linz, 1995.

نجد أيضًا في هذا الكتاب الجماعي موضوعًا كتبه روي أسكوت، الرائد في الفنون على الشبكة «من أجل جمالية المظهر»، بالإضافة إلى بحث لديريك دو كيركوف (Derrick de Kerckhove) يحلل فيه فن الوِيب، والوِيب باعتباره فنًّا.

LEROI-GOURHAN André, *Le Geste et la Parole*, tomes 1 et 2, Albin Michel, Paris, 1965.

مرجع لا يمكن الاستغناء عنه في الأنتروبولوجيا وفلسفة التقنية. وأنا مدين كثيرًا للربط الوارد في هذا الكتاب بين تطور اللغة وتطور التقنية خلال عملية البشرنة. ويمكننا مع ذلك أن ننتقد مفهومه المبسط جدًّا للأداة كامتداد للأعضاء.



LÉVY Pierre, *De la programmation considérée comme un des beaux-arts*, La Découverte, Paris, 1992.

مجموعة دراسات تجريبيّة في علم البيئة الإدراكية. وتحليل مفصل من خلال أربع حالات ملموسة للعمل الابتكاري والإبداعي الذي تمثله البرمجة المعلوماتية «الحِرَفية».

LÉVY Pierre, *Les Technologies de l'intelligence. L'avenir de la pensée à l'ère informatique*, La Découverte, Paris, 1990. Réédition en poche: Seuil, Paris, 1993.

مقاربة فلسفية للنص التشعبي والبرمجيات الجماعية والمحاكاة. يحلل الكتاب العلاقات بين التقانات الفكرية والأشكال الثقافية في ضوء العلوم الإدراكية ويطرح برنامج البحث عن «بيئة إدراكية».

LÉVY Pierre, *L'Intelligence collective. Pour une anthropologie du cyberspace*, La Découverte, Paris, 1994.

الذكاء الجماعي كمشروع حضاري موضوع في سياقه من خلال نظرية الفضاءات الأنتروبولوجية الأربعة: الأرض والمنطقة والبضاعة والمعرفة.

MAYERE Anne, *Pour une économie de l'information*, Éditions du CNRS, Paris, 1990.

اقتصاد المعلومات من وجهة نظر المسؤولين عن التوثيق وأمناء المكتبات.

McLUHAN Marshall, *La Galaxie Gutenberg. Face à l'ère électronique*, HMH Ltée, Montréal, 1967.



أحد الكتب التي جعلتنا نفهم الدور الرئيسي لتقنيات الاتصال في التطور الثقافي والتكوين النفسي. وأنتقدُ مقاربته ذات الجانب الأحاديّ لوسائط الإعلام التي عدّها «امتدادًا للحواسّ».

RASTIER François, «La triade sémiotique, le trivium et la sémantique linguistique», *Nouveaux Actes sémiotiques*, n° 9, p. 54, 1990.

دراسة علمية لأحد أفضل علماء اللغة الفرنسيين حول التشابه بين التصنيف الحديث «نحو، علم دلالة، تداوليّة»، والثلاثي القديم «نحو، جدلية، بلاغة». يعرض فرانسوا راستييه العلاقة بين هذه التقسيمات الثلاثية والثلاثي السيميائي الأساسي: دالّ، مدلول، مرجع، أو كذلك (*vox, conceptus* et *res*) والمفهوم الذي بنيته للثلاثي الأنتروبولوجي مستمدّ من قراءة هذا المقال.

REICHHOLF Joseph, *Mouvement animal et évolution. Courir, voler, nager, sauter*, Flammarion, Paris, 1994. Édition originale en allemand chez Deutscher Taschenbücher Verlag, Munich, 1992.

الحركة والتحرك والسرعة في العالم الحيواني والحي. الافتراضان بالتنقل.

RHEINGOLD Howard, *Les Communautés virtuelles*, Addison Wesley, Paris, 1995. Édition originale: *Virtual Community*, Addison Wesley, New York, 1993.

شارك هاورد راينغولد بنفسه في مجتمع افتراضي لمدة عشر سنوات. يحتوي الكتاب خاصة على معلومات تاريخية قيمة حول



الاتصال المدعوم بالحاسوب ودراسة مثيرة للاهتمام لظاهرة الـ MUDs التي تتمثل بلعب أدوار على شبكات الحواسيب.

RHEINGOLD Howard, *La Réalité virtuelle*, Dunod, Paris, 1993. Édition originale: *Virtual Reality*, Simon et Schuster, New York, 1991.

أحد أفضل المؤلفات في هذا الموضوع والمخصصة لعامة الناس، مع تبسيط للجانب التقني والتاريخي وعرض للفاعلين.

SERRES Michel, *Le Parasite*, Grasset, Paris, 1980.

كتاب مهم في الأنتروبولوجيا الفلسفية، يعالج فيه ميشيل سير العلاقات الاجتماعية والبيولوجيا ونظرية الاتصال والميتافيزيقا. طُرِحَت في هذا الكتاب لأول مرة نظرية شبه الغرض الذي يشكل مجموعًا عند تنقّله.

SERRES Michel, *Statues*, François Bourin, Paris, 1987.

تأملات ممتازة حول الانتقال المستمر من الغرض إلى الشخص ومن الشخص إلى الغرض.

SERRES Michel, *Atlas*, Julliard, Paris, 1994.

كتاب جيّد في موضوع الحضارة الجديدة المرتبطة بالمعلوماتية وطفرة الاتصالات. يعرض هذا الكتاب أيضًا تحليلًا مثيرًا للاهتمام للافتراضي على أنه «خارج هذا المكان». وللأسف، لم يكلف ميشيل سير نفسه عناء التميز بين مختلف آليات الاتصال، إذ إن تأثيرات التلفزيون اختلطت لديه غالبًا بتأثيرات الإنترنت!



SHAPIN Steven et SCHAFFER Simon, *Léviathan et la pompe à air*, La Découverte, Paris, 1993. Édition originale: *Leviathan and the Air Pump*, Princeton University Press, 1985.

البناء الذي يزخر بالأحداث في المجتمع العلمي «التجريبي» خلال القرن السابع عشر، حيث نرى أن العلم المعاصر قد تأسس من خلال الأغراض المشتركة.

SPERBER Dan, «Anthropology and psychology, towards an epidemiology of representations», *Man*, NS, n° 20, p. 73-89.

يعرض مشابهة بين الفيروسات والتمثّلات الذهنية. ويختلف علم أوبئة التمثّلات طبعًا بحسب أنظمة الاتصال الموجودة في البيئة الثقافية. ولقد أتاح لي هذا المقال أن أضع الترتيبات المادية والوظائف النفسية على «مستوى المحايثة» نفسه.

STENGERS Isabelle, *L'Invention des sciences modernes*, La Découverte, Paris, 1993.

يُفهم العلم هنا على أنه اختراعات لاختبارات قادرة على حث الجماعات. ويتيح لنا كتاب إيزابيل ستنغرز هذا تقدير القيمة الفريدة للعلم الحديث، ويمنع إقصاء أنماط المعرفة الأخرى واستجواب الحقيقي. يقوم على الفكاهة كأساس، من دون تأسيس لإتيقا المعرفة.

STENGERS Isabelle (sous la dir. de), *L'Effet Whitehead*, Vrin, Paris, 1994.

عمل جماعي يشكل مقدمة جيدة لقراءة وايتهيد. نكتشف فيه فلسفة مهمة للحدث والإبداع.



TOFFLER Alvin, *Les Nouveaux Pouvoirs*, Fayard, Paris, 1991. Édition originale: *Powershift*, Bantham Books, New York, 1990.

كتاب مشوش قليلًا، لكنه يعج بالمعلومات عن الافتراضان المعاصر للاقتصاد والمجتمع.

TOFFLER Alvin et Heidi, *Guerre et Contre-guerre*, Fayard, Paris, 1994. Édition originale: *War and Anti-War*, Little, Brown & Cie, New York, 1993.

افترضان الحرب ككاشف للطفرة الجارية.

WHITEHEAD Alfred, North, *Aventures d'idées*, Le Cerf, Paris, 1993. Édition originale: *Adventures of Ideas*, Macmillan, 1933.

ينظر إلى تقدم الحضارة على أنه انتصار للإقناع على القوة، مع موجز للنظام الميتافيزيقي من وضع المؤلف.

WHITEHEAD Alfred, North, *Procès et Réalité*, Gallimard, Paris, 1995. Édition originale: *Process and Reality*, Macmillan, 1929.

الفرصة الحالية، الحدث الأساسي، نقطة الخبرة، التدفق المجهري للإدراك العاطفي (يجب تمييزه عن الشعور الواعي) كحقيقة قصوى. فلسفة الحدث والإبداع الكوني.



الفهرس

- ن -



هذا الكتاب

إن ما نسميه عالَمًا افتراضيًا أصبح يستوعب، تقريبًا، كل شيء: أجسادنا وذكاؤنا ورسائلنا ونصوصنا وما نمتلك ونتبادل، كل هذا مسّته، اليومَ، حركةُ التحويل إلى الافتراضيّ. هذه الحركة السريعة والمعولَمة مسّت حتّى طرقنا في أن نكون معًا، إذ أصبح بالإمكان أن نكون «مجموعة افتراضيّة» أو «أصدقاء افتراضيّين» أو «مؤسسة افتراضيّة» أو «ديمقراطية افتراضيّة»...

هل يعني الدخول في عالم الافتراضيّ انفصالًا عن الواقع؟ في هذا الكتاب إجابة هي أقرب ما يكون إلى النفي: الافتراضيُّ «لا يمتّ إلّا بصلة ضعيفة إلى الزائف أو الوهمي أو الخيالي. ليس الافتراضيُّ ضدّ الواقعيّ أبدًا. إنه على النقيض من ذلك نمط وجودٍ خصب وقويّ يُغني عمليات الإبداع ويفتح آفاق المستقبل ويحتفر آبارًا من المعاني تحت سطحيّة الوجود الفيزيائي الآني».

يدافع هذا الكتاب العلمي عن فرضيّة تبتعد عن الصيحات الكوارثيّة المعهودة وتضع الافتراضيَّ في صيرورة التحوّل من نمط وجود إلى آخر وتوضّح مساهمته في اختراع ما هو انسانيّ.

✍